أولادنا

سميراميس

عبد التواب يوسف



دار المعارف

سميراميس

اقرأ

٣٣

سميراميس

عبد التواب يوسف

الطبعة الثانية

دار المعارف

رسم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

كلمة

مدين أنا بهذا العمل إلى صاحبته ، التى تردد اسمها الموسيقى خلال قراءاتى الأولى فى طفولتى ، وإلى فندق صغير فى مدينتى « بنى سويف » لا أدرى لماذا اختاروا له ، ولمطعم ملحق به هذا الاسم الجميل ، وقد صاحبنى طويلاً قبل أن أفكر فى أن أكتب عنه ، بعد قراءات كثيرة فى تاريخ آشور . ثم إنى عثرت يومًا على مسرحية عنها ، ترجمها الشاعر الغنائى الرائع أحمد رامى فى أواخر العشرينات عن (جوزفان بلادان) الشاعر الفرنسى .. وحسمت دار ثقافة الأطفال فى بغداد الموقف حين تحمست لهذا العمل ، وقد سبق أن نشرت لى بجانبه : « الأربعة الذين سرقوا الزمن » و « بيت الإبرة » و « ابن البيطار » و « الحساب » .. وإنى إذ أشكر لهم كريم مساندتهم آمل أن يستمتع أحفاد بناة الحضارات القديمة بمثل هذا الحديث عن الجدود العظام ، وأرجو أن يعد هؤلاء الأحفاد أنفسهم لبناءالحضارة الرابعة ، بعد أن بنوا الحضارات الأولى فى مصر والعراق واليمن وفينيقيا ، وكانت كلها روافد لحضارتنا العربية الخالدة .. وآن الأوان لكى تعود « الحضارة » إلى حيث نبتت ووجدت .

عبد التواب يوسف

سميراميس و بابل

« لقد ظلت بابل سيدة آسيا الوسطى ، تشبه فى الحقيقة تلك المرأة التى روت الأساطير .. أنها هى التى سَيَّدَتْهَا ، حتى أنها كانت مثلها : متكبرة ، قاسية ، طموحة ، مونعة بجمال الفن وجلائل الأعمال ، تواقة إلى قهر الطبيعة وحكم الناس ..

بابل – مثل سميراميس – دفعت الأنهار تجرى حيث كانت تشاء وأقامت الحصون والقلاع والأسوار ، وشقت الطرق فى الصخور .. وقلدتها وحاكتها فى كل شىء ، حتى فى الغموض الذى سيطر على نشأتها ونهايتها ، فلم يتمكن أحد من معرفة العصر الذى شيدت فيه ، ولا اليد التى وضعت حجر أساسها ..

إن إزالة الرمال عن آثارها لم يجعلنا نقف على سر عظمتها ومجدها .. وحياة سميراميس وسيرتها كانت لها معنى – حتى لو كانت خرافة – ولا يمكن أن نغفل الحديث عن قصتها الجميلة وصورتها المهيبة ، التى خلدت ، فأصبحت لها حياة أبقى من حياة الملوك ، الذين صاغ الطين وصلصال ما بين النهرين تماثيل وجوههم الحجرية ، وهى مازالت وستبقى فيما يبدو إلى الأبد صامتة خرساء .

جوستاف لوبون

البدايــة

اقتربت سفينة الفضاء من كوكب الأرض ، وبدأت تقلل من سرعتها ، وتستعد للهبوط فى « آشور » وتطلعت الفتاة الجميلة القادمة من بعيد لترى حدائق غناء ، وبساتين مثمرة ، وعمارات شاهقة ، ففتحت عينيها ، وهتفت :

– ما أجملها .. ما أروعها .. ما أحلاها !

لم ينطق الربان بكلمة ، فقد كان يشغله عنها آلاته وأجهزته لكى يرسو قرب المدينة دون أن يلفت نظر أهلها ، ونجح فى ذلك بعد أن أثار من حوله عاصفة من الرمال ، وعلى أثر ذلك فتح باب المركبة ، وقال للفتاة فى حسم شديد :

– هيا .. اهبطى .. سنعود إليك بعد عام !

ونزلت الفتاة تتلفت حولها فى قلق وترقب ، بينما أقلعت مركبة الفضاء عائدة من حيث أتت ، إلى كوكبها البعيد ..

وكان ذلك منذ قرابة خمسة آلاف عام !

وجدت الفتاة نفسها ، وحيدة وسط الصحراء ، بعيدة عما شهدته من خضرة ، وراحت تحاول أن تستكشف موقعها ، وقد أحست

بالحر اللافح .. وسارت بضع خطوات باحثة عن مكان يأويها ، أو إنسان يساعدها .

ترى ، هل كانت أول زائر من الفضاء للأرض ؟ أول ضيف كونى على كوكبنا ؟

الحكاية تقول : إن فتاة جاءت من السماء ، وإنها التقت مع رجل من آشور ، وإنها أنجبت طفلتها ، ثم جاءتها مركبة الفضاء لترجع بها كوكبها البعيد ، وربما أخذت معها زوجها ، أو اختفى بشكل آخر ، وبقيت الوليدة الصغيرة فى ظل شجرة ، قرب بئر ، تحوم من حولها حمامة بيضاء ، ناصعة البياض ..

وهكذا جاءت « سميراميس » إلى الحياة !

لكن حكاية أخرى تقول : إن كل هذا لم يحدث ، وإن هذه الوليدة الجميلة لها أم وأب من آشور ، وقد هاجمهما اللصوص وقطاع الطريق عند البئر ، وتحت الشجرة ،واضطرا لأن يهربا وكل منهما يتصور أن الصغيرة مع الآخر ، بينما هى وحيدة فى جوف الصحراء ، وقد ارتفعت صرخاتها باكية ، مولولة ! .. ترى كيف يمكنها أن تعيش ؟ كيف تحصل على طعامها وشرابها ؟ من يحميها من الطبيعة القاسية والأخطار ؟ ! ..

كانت الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، تحوم وترفرف هنا وهناك ، ولمحت بطرف عينيها تلك الصغيرة الباكية ، وربما سمعت صرخاتها العالية ، وهى تقترب منها ، وقد تكون دموعها وصيحاتها قد هزت

الحمامة فانطلقت إلى رفيقاتها ورفاقها تستدعيهم وتسألهم أن يأتوا لكى يروا هذه الوليدة الجميلة .. وقدم سرب كامل من الحمام يطير ويرفرف ، وراح يدور من حولها ، ثم يحط فوق أغصان الشجرة التى تظلها ، ويرتفع الهديل بما يشبه النواح ، والصغيرة لا تبالى بما يجرى حولها ، ولا تعيه ، ولا يعنيها فى قليل أو كثير .. إن الجوع يوجع معدتها الخاوية ، الصارخة ، تريد طعامًا وشرابًا وحنانًا ..

كان الحمام فى دهشة شديدة ، فإنه لا يترك وليده وحيدًا بعد أن يخرج من البيضة ، بل يظل إلى جانبه يرعاه ، ويحميه ، ويطعمه .. إنه يرضعه ما يشبه اللبن من حوصلته لمدة أسبوع كامل .. ويشارك الأب فى عملية الرضاعة هذه ، إذ لا فارق بين الأبوين فى هذه المسئولية ، هما – معًا – يرضعان الحمام الوليد ، وبعد قليل يخلطان له اللبن بالحبوب الصغيرة المجروشة ، ورويدًا رويدًا تزيد كمية الحبوب ، وكل ذلك يعطيه الأبوان للصغير من خلال مناقيرها ، إلى أن تحين لحظة الفطام .. بعدها يستطيع الناشئون الاعتماد على النفس فى التقاط الحبوب .. هذا ما يفعله الحمام ، فما بال الإنسان – صاحب العقل واللسان – يترك وليدة وحيدة ، تحت الشجرة ، بلا رعاية أو حماية ؟ من يضع لها اللبن فى ثغرها كما تفعل أم الحمام وأبوه ؟ !

كانت سميراميس ترقد عاجزة .. ولم يكن أحد قد أعطاها هذا الاسم ، بل لم يعطيها أحد شيئًا على الإطلاق ، لذلك طار الحمام هنا وهناك بحثًا عن شىء يطعمه إياها ، وارتفعت الحمامة البيضاء الناصعة

البياض إلى فوق ، وعلت فى الفضاء عن رفيقاتها والحزن يملأ قلبها الصغير ، ومن خلال دموعها لمحت مضارب خيام البدو ، وكانت النساء فى تلك اللحظة يقمن بحب الأغنام ، فسارعت الحمامة إلى رفيقاتها ورفقائها ، وراحت تهدل ، ثم انطلقت ، وهم من ورائها ، إلى أوعية اللبن الحليب ..

وقف الحمام يرفرف ، فى صف طويل ، وراحت كل حمامة تلتقط من الوعاء قطرة لبن ، تبقيها فى منقارها الصغيرة ، وتمضى بها إلى حيث ترقد الوليدة ، وتضع منقرها فى فم الصغيرة ترضعها قطرة الحليب ، وتطير لتأتى من بعدها حمامة أخرى ، وهكذا .. وكفت الوليدة عن البكاء ، بينما سرب الحمام يغدو واحدة بعد الأخرى .. وتبتسم « سميراميس » وترنو بعينيها إلى السماء ، تشكر لها أن بعثت إليها بهذا الحمام الحنون.. ويكف هذا عن نوحه، ويهدل جزلاً فرحًا..

(أيكون هذا الحمام حفيد حمام نوح؟ لقد أطلقه من السفينة ليطير بحثًا عن أرض قريبة ترسو عليها السفينة بعد الطوفان، وبعد أن طال بها الوقت وسط الأمواج، وعاد الحمام وفى منقاره أغصان الزيتون، رمزًا للأمن والأمان والسلام، إذ قَرُبَتِ السفينة من الأرض والشجرة، لتنجو).

ظل الحمام يقوم بإرضاع الوليدة الصغيرة بدون ملل أوكلل ، بل لعله كان يشعر بسعادة غامرة ، وهو يؤدى هذه المهمة الجليلة ، التى

أوكلها له القدر ، وليذكر له التاريخ هذا الصنيع الطيب.. وقد حدث– ذات يوم – أن شهد الحمام ثعبانًا يزحف تجاه « سميراميس » الصغيرة ، وشعر الحمام بذعر شديد ، فهو يخشى الثعبان كالموت ، فهو إذا لم يبتلعه طعامًا لدغة ليسرى السم فى جسمه إلى أن يقتله .. وعندما اقترب الثعبان من الصغيرة لم يكن هناك وقت للتفكير ، إذ انقض الحمام طائرًا كالسهم ، وراح ينقر الثعبان فى رأسه حتى تركه جثة هامدة ، بجوار « سميراميس » التى كانت تناغى فى فرح وبهجة كأنها تدرك حقيقة ما حدث ، ثم راحت فى نوم عميق !

كان الحمام يضيق ببكاء الوليدة الصغيرة ، لكن ما إن تسكت وتستغرق فى النوم حتى يصير أكثر ضيقًا وقلقًا عليها، ويروح يحوم ويرفرف قريبًا منها ، حتى يستشعر أنفاسها الضعيفة الواهنة تداعب زغب وجهه الحنون ، وهو يطل عليها ، حتى ليكاد يلامسها ، وعندما تنتظم أنفاسها – مع النوم – يقترب منها أكثر ، بل إنه يلتصق بها ليلاً ، ليدفئها ، بديلاً عن الثياب والغطاء .

مَنْ هدى الحمام ليطعم « سميراميس » ؟ مَنْ دفعه لأن يحميها من الثعبان ؟ مَنْ جعله يلتف من حولها ويلتصق بها ليدفئها ؟ .. ترى ، إلى متى استمر هذا ؟ وكم بقيت الصغيرة رضيعة للحمام ؟ .. وهل يمكن أن يبقى ذلك الوضع طويلاً ؟

أسئلة كثيرة ، لا نعرف أن نجيب عليها .. لكن المهم أن الحمام كان لابد وأن يبلغ الناس فى آشور بهذه الوليدة الصغيرة ، فهو

لا يستطيع أن يتحمل مسئوليتها طويلاً ، وليس فى مقـوره أن يرعاها أكثر من هذا ، وهى بحاجة إلى أشياء كثيرة غير الطعام والنوم .. والجو بارد ليلاً .. ولابد للصغيرة من أن تكون نظيفة .. ولا قدرة له على كل ذلك .. ما أكثر ما يحتاجه الصغير فى طفولته المبكرة ، وما أكثر ما تؤديه الأم ، والأب أيضًا ..

تشاور الحمام فيما بينه ، وارتفع هديله ، وكان واضحًا أنه يتناقش ، ويبدو أنه قد وصل إلى حل ، وأنه اختار لها من يرعاها ، وكان عليه وهو حامل الرسائل أن ينقل رسالة منه شخصيًا إلى من اختاره .. ترى كيف السبيل إلى هذا ؟ ! .. تقول حكمة الصحراء إن الحيوان قد يموت عطشًا وهو يحمل قربة الماء .. كان لابد للحمام أن يفكر ..

* * *

الصبيـــة

رنا الطفل الصغير إلى الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، وهى تهبط بالقرب منه ، حتى لتكاد يده تطولها ، وراحت هى تهز برأسها وتشير ، والصغير فى دهشة لها ، فخطا نحوها فلم تبتعد كثيرًا ، ووسع من خطواته ، فمضت أسرع قليلاً ، كأنما تقول له :

– اتبعنى ...

واللبيب بالإشارة يفهم ، كما يقولون .. وفهمها الطفل ، واقتفى أثرها والسرب معهما ، وعندما لمح الطفل تلك الوليدة الصغيرة راقدة تحت الشجرة ظهرت على وجهه علامات الدهشة ، واقترب منها فى خطوات وئيدة ، وانحنى عليها فى ذهول .. ثم أطلق ساقيه عائدًا إلى البيت ليبلغ أهله بالأمر .. ولم يصدقوه فى البداية ، لكنهم مضوا معه لكى يحملوا « سميراميس » إلى الدار ، وهم يعتبرونها هدية من السماء ، ويحتفلون بها احتفالاً كبيرًا ، إذ يرون فيها شيئًا مقدسًا : كيف عاشت وحيدة فى هذه الصحراء ؟ كيف وجدت طعامها وشرابها ؟ مَنْ حماها ورعاها ؟ .. وقد زاد من دهشتهم أن شاهدوا بجانبها ذلك الثعبان الصريع ، وتصوروا أنها خنقته بيديها ، وأنها بذلك صنعت معجزة .

ومن هنا تناقلوا عنها ألف حكاية وحكاية : واحدة عن أمها القادمة من السماء ، والثانية عن أبيها ، والرابعة ، والخامسة .. وكان كل واحد منهم يضيف لكل حكاية عبارة أو جملة أوكلمة ، وإذا بنا أمام فيض لا ينتهى من الروايات والأخبار .. هناك من قال إنها كانت ترضع ضوء الشمس ، ومن قال إنها خرجت من بيضة حمامة .. وقد أضفت عليها كل هذه الحكايات هالة من السحر والقدسية (ربما يكونون قد سمعوا بقصة سيدنا موسى الذى ألقته أمه فى النيل ، وحملوه إلى قصر فرعون ليعيش فيه .. وربما سمعوا بقصة سيدنا يوسف الذى تركه إخوته فى البئر وحملته قافلة إلى مصر) وقد رعوا الوليدة الصغيرة ، وأعطوها كل اهتمامهم ، وأفردوا لها جناحًا فسيحًا فى دارهم ، وأحضروا لها المرضعات ، ورعوها رعاية خاصة ، ومنحوها ذلك الاسم الجميل المثير الذى عرفته كل الدنيا فيما بعد : « سميراميس »

شبت الصغيرة الجميلة ، الذكية ، المرحة .. وبدأت تضع أقدامها على الأرض ، وراحت مع كل خطوة تخطوها يحكون عنها حكاية .. إنها تنطلق فى المساحات الواسعة حول الدار ، تجرى فتسبق قريناتها وأقرانها ، ولا يستطيعون اللحاق بها .. إنها نشطة ، وطاقة حيوية زائدة ، تكبر بأسرع مما يتوقعون ، وتأتى من الأشياء بما يتجاوز سنها ، وتقول كلمات أكبر من عمرها .. خاصة فيما يتعلق بأحلامها التى تراها أثناء نومها ، وخلال يقظتها .. إنها دائمًا حالمة .. وحالمة عظيمة لا حدود لأحلامها ، ولا أفاق ، والكل يتناقل عنها تلك الأحلام

فى دهشة ، ويروونها ضاحكين ، غير ساخرين ، ويحاولون أن يفهموها ..

– حلمت بالأمس أنى أبنى قصورًا عالية فى الفضاء ..

– لا . . لا تبنى يا ابنتى قصورًا فى الهواء ..

– وأين أبنيها ياعماه؟ فى جيبى؟ فى برج الحمام؟ تحت الأرض؟

– هكذا قالوها لنا : حكمة ، ما كنت أعرف سخافتها إلا اليوم .

– القصور لا تبنى إلا فى الهواء ..

– إنها تقع!

– إذا لم يكن لها أساس عميق وهندسة سليمة !

كيف تعرف هذه الصغيرة البناء والهندسة وهذه الكلمات ؟ !

ولماذا تختلف أحلامها عن أحلام رفيقاتها ؟

– رأيتك ياعماه فى حلمى ..

– ماذا كنت أفعل ؟

– ألم تكن معى ؟ ... فأنت تعرف ما كنت تفعل .. رحت تحاول أن تجلسنى على مقعد كبير .. كبير .. كبير ..

– وهل نجحت ؟ !

– طبعًا .. وحاول البعض أن ينزلونى من عليه ، لكننى تشبثت به ، وظللت فيه لا أحد يقدر على أن يطولنى !

ويضحك العم ، وتفاسير شتى ترد على ذهنه، ويبتسم أحيانًا وينصح الصغيرة ألا تأكل طعامًا ثقيلاً قبل النوم ، وهى تؤكد له أنه لا علاقة لأحلامها بالطعام والشراب ، وأنها تستقبل أحلامها فى ابتهاج ، وتعترف له أنها تحب أحلامها ، وأنها إذا لم تأتها ليلاً ، تجلس إلى نفسها نهارًا لتسرح ، وتصنع بنفسها أحلامها ..

– لكن ، ياعماه ، أليس غريبًا أن أحلامى ليست ملونة ؟

– ماذا تعنين يا سميراميس ؟

– أراها بيضاء ، كالحمامة .. أو سوداء كالظلام ..

– وأى شىء فى هذا ؟

– ليست هكذا الدنيا والحياة .. الزرع أخضر ، الشمس صفراء ، الدم أحمر ، والسماء زرقاء .. لماذا لا أرى الألوان فى أحلامى ؟

– لست أدرى .. لماذا تسألييننى أسئلة لا قدرة لى على إجابتها ؟

– لأنى أريد أن « أعرف » الكثير !

– سوف أذهب لأسأل لك كبير أمناء مكتبة آشور .

– هل يعرف كل شىء ؟ !

– ما من أحد يعرف كل شىء .. هو يعرف أكثر من غيره ، لأنه يقرأ ، ويكتب اللغة السماوية ..

– ولماذا لا أقرأ أنا كذلك ، وأكتب ؟

– لم تتعود أن تفعل الفتيات ذلك !

– تعودوا .. ثم إننى لست بفتاة عادية ..

– صدقت ..

وينصرف الرجل عنها وقد ازداد إعجابًا بها وتقديرًا لها .. شىء واحد كان يقلقه عليها : أنها تستيقظ ليلاً ، وتروح تصدر نغمًا يقترب من هديل الحمام : صوت رقيق ، عذب ، ناعم ، هادئ .. ولم تكن من الصباح تتذكر هذا ، لكنها فقط تحكى عن أحلامها الواسعة العريضة .. ويأتى العرافون ومفسرو الأحلام ، وكل منهم يقول شيئًا مختلفًا عن الآخر ، لكنهم يجمعون على أن هذه الصغيرة سوف يكون لها شأن ، وأى شأن ! .. وكانت تسمعهم وعبارة تتردد دومًا على لسانها :

– وماذا بعد ؟ !

كانت لهفتها كبيرة لأن تسمع المزيد، وتريد أن تستبق الأحداث، وأن يكشفوا لها عن المستقبل ، ويتسمون لقلقها، هم لايعرفون الغيب، وكل ما يفعلونه أن يتخيلوا.. أن يتصوروا .. ثم يتحدثون عما تخيلوه، وعن الصور التى تتراءى لهم , وما من واحد منهم كان يمكن أن يذهب به الأمر إلى حد تخيل أو تصور ما سيحدث، فقد كان أبعد من الخيال وأوسع من التصور. إن الصغيرات من أمثالها لا تتحقق لهن أكثر من بيت وزوج وأطفال، وربما بعض مال ، هذا كل ما هنالك، لكننا أمام «مخلوقة» غير عادية: ذكية. نشطة. لا تهدأ ولا تتعب. تريد دائمًا فى هذه السن المبكرة أن تصنع شيئًا، وتود أن «تنجز»، والأسرة

التى تستضيفها ، تريد أن توفر عليها ذلك ، لكن الصغيرة تأبى دائمًا إلا أن تثبت وجودها ، ثم إنها تصر باستمرار على أن تستخدم عقلها ، وتدلى برأيها .. حتى أنها راحت تبكى وتضرب الأرض بأقدامها من أجل أن يسمحوا لها برعى الغنم وهى فى الخامسة والسادسة من عمرها !



الراعية

خرجت الراعية الصغيرة مع الأغنام .. وأعطاها ذلك مزيدًا من الفرص من أجل مزيد من الأحلام ، وهى تجلس تحت شجرة أو نخلة ، تتطلع بعيونها إلى أغنامها وهى بذهنها : سارحة ، حالمة ، بعيدًا ، بعيدًا .. وقد بدأت تخفى بعض أحلامها عن الأسرة التى استضافتها ، واعتبرتها واحدة منها ، وهى لا تدرى السر فى رغبتها فى الإبقاء على بعض الأحلام لنفسها .. ماذا كانت تخشى ؟ ! .. لعله مجرد إحساس ، ربما تريد أن تحتفظ لنفسها بشىء ، قد تكون قد بدأت تدرك أن أحلامها تجعلها مختلفة عن الباقيات ، وهى لا ترغب فى أن تبدو كذلك .. لكن « سميراميس » رأت ذات ليلة ، أو ذات نهار ، حلمًا لم تستطع أن تكتمه ، لذلك حكته أكثر من مرة ..

« رأيتنى أرعى قطيعًا كبيرًا . كنت وحدى . القطيع كبير بصورة غير عادية . إنه يملأ الأرض أمامى وخلفى ، وعن يمينى وعن يسارى .. وعندما دققت النظر إلى القطيع راعنى أنه ليس من الأغنام ، بل اختلطت الصورة على ، وتماوجت ، وبدت كأن الذين أمامى بشر ، كانوا كلهم يتطلعون إلى ، ويأتمرون بأمرى ، ولم تكن تصدر

عنهم الأصوات المعروفة عن الأغنام ، بل كانت كلماتهم هتافًا .. باسمى ، كانوا جميعًا يرددون فى نغمة حلوة

– سميراميس .. سميراميس .. سميراميس

وعقّب البعض لدى سماعه لهذا الحلم ، فقال ..

– أحلامك عريضة ، يا سميراميس ..

– لقد تجاوزت الأغنام إلى البشر ..

– شفاك الله يا بنيتى وعافاك !

وترد سميراميس : ولكننى لست بمريضة .. نعم ، أحلامى عريضة ، بل أعرض مما تتخيلون ، وأوسع مما تتصورون ، ولا يَدَ لى فيها .. بل أنا أعتبر الأحلام أعظم هبات السماء للناس .. كم تكون الحياة كئيبة مظلمة ، بدون الأحلام .. الأحلام هى الضياء ، والنور ..

وكانت – رغم ذلك – بعض أحلام الراعية قاسية مرعبة .. إنها قد ترى ذئبًا يهاجم أغنامها ، أو ثعبانًا يتلوى ناحيتها ، والغريب أنها كانت دومًا تتجاسر على محاربتها ، ولا تخاف أو تتراجع ، بل تقاتلها فى بسالة ، وكثيرًا ما نجحت فى أن تصرعها قبل أن تصحو من نومها .. وهى مع هذه الأحلام تصحو متعبة مرهقة ، تعلو الصفرة وجهها الهادى ، العذب ، الحلو ..

أما فى يقظتها فهى تشارك أبناء الحى فى رعى الغنم ، لا تتخلف عن الركب ، وتمسك دائمًا عصًا صغيرة تختارها من فروع الشجر ،

تزينها بضع أوراق خضراء ، وتبدو فى يدها كأنها صولجان ، ترفعها فى قبضتها منتصبة مستقيمة ، حتى خلال جلوسها فوق الرابية العالية تطالع الأغنام وتنظر حالمة إلى الأفق البعيد ، متسائلة :

– ماذا وراءه ؟ وماذا بعده ؟ !

وعلى الرغم مما اشتهرت به من السرحان ، إلا أن عينيها لا تغفلان عن حراسة أغنامها ، وقد حدث يومًا أن جاء الذئب – فى الواقع لا فى الحلم – وهرب الرعاه ، وتفرقوا كل إلى ناحية ، وثبتت هى ، ومضت وحدها تجاهه في يدها عصاها ، وهاجمت بها الذئب واستطاعت بضربة واحدة أن تجعله يقع مضرجًا فى دمائه ، ولم يقدر بعدها على أن يرفع رأسه .. وزعم الرعاة الصغار أن حمامات نزلت قبل ذلك لتنقر عين الذئب قبل أن تجهز هى عليه ، وعندما عادوا ليجدوه صريعًا عادوا إلى البلدة ، وهم يحفون بها ويهللون ، ويترنمون باسمها ويهتفون ..

– سميراميس .. سميراميس ..

كان ذلك الهتاف أجمل ما سمعته فى حياتها ، منذ ولدت ، وقد أحبته كثيرًا وتمنته ، وحلمت به ، لكن عندما تحقق كان وقعه أروع وأجمل .. وظل يتردد فى أذنيها لأيام طويلة بعدها .. خاصة إذا كانت وحدها تحت الشجرة خلال رعى الغنم ، وهى تأكل نصيبها من الحشائش الخضراء .. وحين تعهد الأسرة إلى سميراميس بأن ترعى الحصان ، تشعر بفرحة غامرة ، فهى تحبه ، وتهتم به ، ولا يفوتها أبدًا

أن تعتلى صهوته ، وأن تتدرب على ركوبه ، وكانت قدرتها على ترويض الخيل كبيرة ، ومهما جمح بها كانت قادرة على كبح جماحه ، والإمساك بلجامه بقوة ، فلم تقع مرة واحدة من فوق ظهره .. ولم تكن الفتيات يفعلن هذا ، وكانت هى تقابل بدهشة من الفتيان ، والحصان ينطلق بها راكضًا ، وهى ملتصقة به ، وكأنها قطعة منه .. ولم يكن هناك أطرف من منظرها وهى تستعير سيفًا خشبيا تبارز به أقرانها من الفتيان ، وتنجح فى صعنهم به ، بل قد يقع واحد منهم من فوق حصانه أثناء ذلك ، بينما هى ثابتة لا تهتز .. والرعاة الصغار يعزون كل نجاحها وتفوقها إلى : الحمام ، فقد رأوه دائمًا يحلق من فوقها ، ويتبعها أينما تسير ، فما من مرة مضت بقطيع الأغنام إلا وكانت هناك أكثر من حمامة ترفرف ، وتظللها .. وعندما تمتطى صهوة حصان تسابقه فى السماء حمامة بيضاء .. وعندما تجلس حالمة فى ظل شجرة ، تحط الحمائم من حولها ، وتحيط بها : وتتسابق فى مداعبتها ، هذه تقف على كتفها ، وتلك تجلس على حجرها ، بل تتمادى بعض الحمامات فتضع منقارها فى ثغرها ، كأنما تذكرها بأيام الرضاعة ! ، وتضحك سميراميس من كل قلبها ، وتبعد عنها الحمام فى رقة وعذوبة .. وهى لا تنسى ذلك اليوم الذى دعتها فيه أسرة صديقة لتناول طعام الغذاء ، وشهدت على المائدة بضع حمامات ، وأذهلها ذلك ، فما تصورت أن الناس يذبحونه ويأكلونه ، وقد عافت نفسها الطعام ولم تمد يدها إليه ، ومنذ ذلك الحين والأسرة التى تستضيفها تحرم صيد الحمام وذبحه ، بل كانت تتركه يلتقط الحبوب

من حقولها الواسعة .. وتمد « سميراميس » يدها بقطع صغيرة من الحلوى للحمام الحبيب ، وتضحك رفيقاتها لأنها تحرم نفسها منها لكي تعطيه إياها ! ، ولكنها لا لا تبخل عليه بشيء ، وهو صديق ورفيق يلازمها أينما سارت ، وحينما مضت .. وكان يذهب معها حين بدأت تتردد على واحد من علماء آشور ، يعلمها كيف تكتب بالخط المسماري على قوالب الطوب ، إذ تاقت نفس سميراميس إلى تعلم الكتابة والقراءة من أجل أن تعرف أكثر ، لأنها مازالت تذكر ذلك اليوم الذى قال لها فيه رب الأسرة إن كبير أمناء المكتبة يعرف الكثير لأنه قرأ الكثير ! ، واستطاعت هى فى فترة وجيزة أن تسبق أقرانها من الصبيان ، إذ كانت الفتاة الوحيدة التى سعت إلى التعليم .. هى دائمًا مختلفة عن الأخريات ، وهى لا تحب ذلك ، لكنه لم يضايقها فى شيء، إذا احترمتها رفيقاتها ، وبادلتهن الاحترام ، وعاشت بينهن فى ود ، ودون خلاف .. لا تعتدى على أحد، أو على حقه كما أنها لا تسمح لأحد بأن يعتدى عليها أو على حقوقها.. وإن كان واضحًا تفوقها عليهن، وسبقها لهن !

وكانت أسعد لحظاتها تلك التى تقضيها قرب برج الحمام : يأتيها ليشاركها الجلسة ، وكثيرًا ما يحاول أن يعطلها عن كتابة دروسها على قوالب الطوب ، لكنها كانت مصرة على أن تتعلم ، وكانت شديدة الدأب فى مراجعة دروسها ، فهى تتحدث إلى الحمام وكأنه يفهمها وتفهمه ، وتسأله – كأن بينهما لغة مشتركة – أن يدعها تنجز عملها أولاً ، وبعدها يبدأ اللعب .. وهى حين تتفرغ للحمام يأتيها زرافات

ووحدانًا من البرج ، ويصطف لتمر من بين صفوفه وهو يحييها مرحًا مبتهجًا .. وهى تحبه من كل قلبها . خاصة بعد أن جاءتها تلك الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، لتضع من فوق رأسها تاجًا من الزهور فى واحد من أحلامها ، وقد طارت سميراميس من ورائها تسألها عن معنى هذا الذى فعلته ، لكن الحمامة طارت واختفت .. ترى هل تجد لديه الآن شرحًا وتفسيرًا ؟ ! .. إنه يهز رأسه فى تؤدة ، كأنما يقول لها : لا تتعجلى .. غدًا تعرفين كل شىء !



الزوجة

كانت « سميراميس » وهى صغيرة تحلم بأن تصبح كبيرة ، وعندما ترى ظلها طويلاً أمامها تطارده ، وتجرى وراءه ، ولا تلحق به ، لكنها تهتف قائلة :

– أريد أن أصبح طويلة مثل ظلى !

وعندما كبرت قليلاً كفت عن هذا الحلم ، الذى راح يتحقق رويدًا رويدًا ، وشغلها عنه الحمام ، ورعى الغنم ، وركوب الخيل ..

وكبرت ، لتصبح فتاة فاتنة ، حالمة ، تخطو على الأرض فلا تكاد أقدامها تلامسها من فرط الرقة ، وتخطر بين الحمائم فتظنها واحدة منها ، وحين تنطلق فى الصحراء تبدو كنسمة رقيقة ..

وذات صباح ، خرجت من الدار كعادتها ، صبوحة الوجه ، مشرقة ، وأقبل عليها الحمام ، يحوم ويحوّم ، وعند ذلك شاعت البسمة فى قسماتها ، ومضت فى هدوء بضع خطوات وهو يجتذب كل التفاتها ، وفجأة سمعت بعض أصوات من صبية يلعبون ، ويتصارخون وفى يد كل منهم « نبل » ، يطلقون به أحجارهم تجاه الحمام ، فتصيب حصوة رأس واحدة منه فتدور ، وتسقط صاحبتها صريعة ، وأخرى تضرب بالجناح فينكسر ويقع صاحبه على الأرض يكاد يلفظ

الأنفاس .. وتلاشت الابتسامة من على وجه « سميراميس » وصرخت فيهم :

– يالقسوتكم !

وانطلقت سميراميس تطارد الصبية ، وتفرقوا هنا وهناك ، وأصبح من الصعب عليها أن تمسك بهم كجماعة ، فاقتفت أثر أكبرهم الذى توسمت فيه أن يكون هو الذى أغراهم بطيرها الوديع ، وعندما نجحت فى اللحاق به لم تكن قاسية معه مثل قسوته مع الحمام ، بل عاتبته برقة ، الأمر الذى جعله يطرق خجلاً .. ولم تتنبه « سميراميس » إلى أنها قد بعدت كثيرًا عن دارها إلا حين أخلت الصبى من بين يديها وتطلعت إلى ما حولها ، وإذا بها تجد نفسها وسط الرمال ، إذ أنساها غضبها المسافة الطويلة التى قطعتها وصولاً للصبى ..

تنهدت ، وبدأت تأخذ طريقها للعودة ، وفجأة تكاثف الغبار تحت أقدام عدد من راكبى الخيل من جيش آشور ، فرفعت يديها تحمى وجهها من الرمال المتطايرة ، وراحت بين الحين والآخر تحاول أن تنظر من بين جفنيها المسدلين ، لترى إذا ما كانت كوكبة الفرسان قد مضت ، وكانت أصوات وقع أقدامها تتباعد ، وعندما هدأت وفتحت سميراميس عينيها وجدت فارسًا قد ترجل من فوق حصانه ، ووقف قبالتها ينظر إليها فى رقة وإعجاب .. ولكنه صاح فى صوت خشن قوى ، يأمر الجند أن يتوقفوا وأن يضربوا خيامهم فى هذه المنطقة ، وكانت هذه اللحظات كافية لكى تجعل سميراميس تعود إلى نفسها ،

وتنفض عنها الغبار المثار ، استعدادًا للسير راجعة إلى بيتها .. لكن الفارس الشاب اعترضها وهو يقول فى عذوبة ..

– لقد بعدت عن بيتك ..

ردت عليه : لا تقلق علىّ .. أنا كالحمامة تعرف طريق عشه مهما بعدت عنه ..

– وأين عشك أيتها الحمامة ؟

– قريب من هنا ، وليس ببعيد ..

– وما رأيك فى .. فى عش بعيد نوعًا ما ؟

– ماذا تعنى ؟

– عش فى سوريا ، مثلاً ؟

– أى شىء تقصد ؟

– من أبوك لأخطبك منه ؟

سكتت الفتاة ، فقد شلتها المفاجأة ، والسؤال الذى لا تدرى له جوابًا .. لقد سألته لنفسها ولمن حولها مئات المرات ولم تحظ برد عليه .. لكنها هربت منه فى هذه اللحظة لتتذكر حلمًا طاف بها منذ أيام .. هل رأته فى نومها ، أم كان حلم يقظة ؟ .. هى نفسها لا تعرف .. لقد رأت نفسها على صهوة حصان ، يركض بها كالسهم ، وراحت تنكمش فوق السرج ، وتصغر وتصغر وتصغر ، إلى أن تحولت إلى حمامة بيضاء ، ناصعة البياض ، ولم تَعُد خائفة من السقوط ، لكنها

أيضا لم تكن قادرة على الطيران .. وفجأة ظهر فارس شاب على حصان أبيض ، طاردها ، ولحق بها ، ووضع يده عليها ، واحتضنها بين أصابعه ، فى ذات اللحظة التى امتدت فيها يد ما توقظها من حلمها ، وتحكى له ما رأت ، فيقول لها ساخرًا :

– أنت تريدين أن تتزوجى فارسًا !

وترد فى ثقة : وهل ترون فى ذلك عيبًا ؟ !

يتردد لحظة ، ويقول : أحلامك واسعة ، وعريضة ..

لقد اختار هذه العبارة الرقيقة بدلاً من أن يجرحها بقوله :

– لقيطة تتزوج فارسًا ؟ !

ومرة أخرى تستيقظ « سميراميس » من غيبتها عما حولها حين ارتفع صوت الفارس من جديد ، يكرر السؤال :

– من أبوك لأخطبك منه ؟

ردت فى شجاعة : لا أب لى ..

– يتيمة أنت ؟ !

– لا .. بل لا أب لى ولا عم .. ولا أم ، ولا خال ..

– ماذا ؟ ! مقطوعة أنت من شجرة ؟

– أى نعم ..

– هل هذا معقول ؟ من يرعاك ؟

- قبيلة فى هذا الحى ..

- خذينى إليها !

ويقتفى الفارس أثرها ، ويمضى من ورائها ، والأفكار تلهث فى رأسه ، وتطن ، وتدوى ، ويحسم أمره قائلاً ..

- مالى بأصلها وفصلها ؟ ! كلنا أبناء آدم وحواء !

وعندما ينطق بهذه العبارة بصوت عال ، أمام قبيلة الفتاة ، لم يعدم من يقول له :

- حتى هذه بالنسبة لسميراميس أمر مشكوك فيه !

ويذهل الفارس الشاب ، ويروح يستقصى قصتها ، ويسأل عنها وعن خلقها وذكائها ، فيمتدحونها ويتغنون بها ، ولا يجدون فيها عيبًا .. إلا حكاية مولدها ، ولا ذنب لها فيها .. وينبهونه إلى أن أحلامها واسعة وطموحاتها كبيرة ، وبلا حدود ، وأنهم لا يدرون إلى أى مدى تذهب بها ، وهو يرى أنه بزواجه منها يحقق لها الكثير مما يرضى أحلامها وتطلعاتها ، وآمالها وأمانيها ، ويعلن أنه يقبل الزواج منها رغم كل شىء !

كانت المفاجأة كبيرة : الفارس الشاب ضابط أشورى كبير ، وهو حاكم سوريا من قبل ملك البلاد .. لكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يتقدم بطلب الزواج من سميراميس ، وكان أن أقيم حفل كبير ، دقت فيه الدفوف ، وغنى المطربون ، وأكل المدعوون وشربوا

ورقصوا ، وشارك فى ذلك جند القائد ، وقبيلة الفتاة ، وكانت تبدو على الجميع علامات الفرح والسرور ، فمن كان يتصور أن حلم سميراميس سيصبح حقيقة بهذه السرعة ، وبهذا الأسلوب .. إن بنات الحى يحسدنها على هذا الضابط الشاب ، الفارس ، القائد ، الحاكم ، الذى تتمناه كل منهن لنفسها .. لقد صارت سميراميس زوجة ، هل يرضى ذلك أحلامها ؟ ... كان السؤال الذى يراودها دائمًا يرن فى أذنيها : وماذا بعد ؟ !



الجندية

تزوجت سميراميس من الضابط الشاب « مينونيس » وبقيا معًا بين « قومها » بضعة أيام ، قبل أن يبدأ الاستعداد للرحيل إلى سوريا .. إن هناك أمرًا من الملك ألا يصطحب الضباط والجنود النساء فى ترحالهم وسفرهم .. ولقد نسى الشاب ذلك فى غمار حماسه لزواج من هذه الحمامة الجميلة الوديعة ، وبات عليه أن يجد حلاً لهذه المشكلة .. وقد اقترح البعض أن يتركها حيث هى بعض الوقت ، ثم يعود بعد حين لكى يأخذها إلى بيته ، لكنه رفض ذلك ، فهو لا يريد أن يفارقها ..

وعندما طرح المشكلة على « سميراميس » ابتسمت ، وكشفت عن موهبة كامنة ، وهى قدرتها على أن تبتكر الحلول ، وتبتدع سبل الخروج من المأزق ، بأيسر الوسائل ، وأسهل الطرق ، مما أذهل زوجها ، وجعله يتطلع إليها فى إعجاب شديد ..

قالت له : هل تعرف أنى أحسن ركوب الخيل ؟

– لا .. لكن ما علاقة هذا بموضوعنا ؟

– عليك أن تعد لى ملابس جندى ..

وفتح عينيه وقد أطلت منهما الدهشة ، إذ أدرك ما ترمى إليه ، وفهم كيف يمكن أن تكون معه دون أن يخالف أوامر الملك .. وبعد وقت قصير لبست سميراميس ثياب الجندية ، وقفزت إلى ظهر الحصان ، وقد وضعت خوذة فوق رأسها ودرعًا على صدرها ، وبذلك لم يعد هناك ما يمكن أن يكشف عن شخصيتها ، ولم يتعرف عليها الجنود أنفسهم ، خاصة وقد أعلن القائد أنها ستكون الحارس الخاص له ، لا تفارقه أبدًا ، بل هى دائمًا وراءه ومعه ، وبجانبه .

ومضت الفرقة فى طريقها إلى سوريا ، ولم يعرف المحيطون بالضابط الشاب سر هذا الجندى الصامت ، الذى يلازم القائد مثل ظله .. وعندما حدثت بعض المناوشات على الطريق كان واضحًا أن هذا الجندى شجاع ، ثابت ، وكأنه خاض عشرات المعارك من قبل ، فقد ناور وداور وقاتل بسيفه ، وشارك فى دحر المهاجمين ، الأمر الذى جعل الجنود يتساءلون عمن يكون ، لكن قرب وصولهم إلى مدينتهم شغلهم عن الحديث عما دار فى المعركة ، وصرفهم عنها .

وعندما وصلوا تنبهت سميراميس أن الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، كانت معها طيلة الطريق ، وأنها ظلت ترفرف من فوقها دون أن تلفت أنظارها ، أو تتنبه لوجودها .. لذلك لوحت لها تحييها ، فنزلت الحمامة إليها وحطت على كتفها ، ولمس منقارها شفتى « سميراميس » المبتسمتين .. ولم يلحظ أحد هذا الذى جرى ، إذ سرعان ما عادت الحمامة إلى الفضاء ، تطير مرافقة الجند إلى أن

دخلت سميراميس بيتها ، وساعتها حطت الحمامة على نافذة ، تلتقط أنفاسها وتستريح بعد هذه الرحلة الطويلة المرهقة ..

وتطلعت سميراميس من النافذة ، وأطلت على البحر الأبيض .. كانت هذه أول مرة تشهد فيها بحرًا .. هالتها المياه التى تمتد بعيدًا إلى الأفق ، وبلا حدود ، وبدون شط آخر مثل دجلة والفرات .. وراحت تحدق فى البحر .. وتتساءل من أين تأتى أمواجه ؟ وإلى أين تمضى ؟ وماذا يخفى فى أعماقه السحيقة ؟ ! .. وأحست برغبة شديدة فى أن تلقاه ، وتلقى بنفسها بين مياهه ، وتتحدث إليه ، وتستمع له ، وهمست لنفسها :

– سيتسع الوقت لكل هذا فيما بعد !

وكما تعودت سميراميس أن تجلس فى ظل نخلة أو شجرة تطالع الصحراء ورمالها ، بدأت تنظر للبحر ومياهه ، لتحلم فى يقظتها ، وبرفقتها حمامتها البيضاء ، الناصعة البياض التى لم تعد وحيدة ، فقد لحق بها سرب كامل ، قادم من آشور ليرعى الابنة ، والصديقة ، والحبيبة « سميراميس » .. وكم أسعدها قدومه ، بل إنها حين رأته لأول مرة ظنت أنها تحلم ، ولم تصدق عينيها ، لكنه تكاثر من حولها ، وراح يلثمها بمنقاره ، الأمر الذى كان سيوقظها لو أنها نائمة ! ..

وطابت لها الحياة فى سوريا ، وشعرت بلون من السعادة يغمرها ، وأحست أنها قد بدأت تضع أقدامها على طريق تحقيق آمالها العريضة ،

ولو أنها ظلت تعيش حياة متقشفة ، كتلك التى كانت تعيشها فى آشور ، واستمرت داخل أسوار حديقة القصر تمارس ركوب الخيل ، وتتدرب على المبارزة ، وفنون القتال ، وزوجها سعيد بتدريبها ، يريد أن يظهر أمامها مهارته ، وقدرته ، وبراعته .. ووجد أن ذلك اهتمام مشترك بينهما ، يزيد ارتباطهما ، ويجعلها أكثر تعلقًا به ، فمضى يعلمها كيف تستعمل القوس والسهم ، وكيف تضرب بالرمح ، وكيف يصبح السيف ألعوبة فى يدها .. وتجاوزت كل هذا ، إلى ماذا يمكن أن تفعل إذا لم يكن معها سلاح على الإطلاق ! .. إنها تتدرب على المصارعة ، وعلى إجادة الضرب باليدين والقدمين ، مستخدمة ذكاءها فى الإيقاع بخصمها ، وهنا كانت تبز الجميع ، رغم ما هو معروف من أن ذلك حرفة الرجال ، لكنها لم تقتنع قط بأن هناك فارقًا ، وكانت تتعامل وفق هذا فى كافة أمور الحياة .. إن المرأة والرجل كفتا ميزان ، ترجح واحدة بالموهبة والذكاء والبراعة والدربة ، وبالقـــدرة على أن تحلم ، وأن تحول أحلامهـــا إلى حقيقة ..

ترى ، بماذا كانت تحلم « سميراميس » فى هذه الفترة ؟

لقد كبرت معها أحلامها ، وأصبحت أكثر اتساعًا .. ما عادت تحلم بقطيع ترعاه ، بل بالفيالق والجنود تقودهم ، تخفق من فوق رؤوسهم رايات الانتصار ، وهى تكتم تلك الأحلام حتى عن زوجها ، وإن أفلتت منها بعض عبارات تشير إلى أمانيها ، الأمر الذى يضحك له الضابط الشاب ، فهو يتصور أن الأمر لا يزيد على أن يكون أحلامًا

وآمالاً ، ستتبدد لدى خوض أول معركة حقيقية من تلك المعارك التى يقولون عنها : تشيب من هولها الولدان ! .. لكن سميراميس ظلت تحلم ليل نهار ، يعينها على وقت متسع تقضيه وحدها مع البحر ، أو مع حمامها الوافد من آشور ، وكان زوجها الشاب يضطر للغياب لتفقد بعض المواقع ، والقلاع ، والثغور ، إذ حدود المملكة ممتدة ، الطامعون كثيرون ، ولابد من السهر والحرص على أطراف بعيدة ، تلقى هجمات بين حين وآخر ، لابد من ردها على أعقابها ، خاصة وهناك حدود مشتركة مع مصر ، وفراعنتهـــا ينتهزون الفرصة للإغـــارة على البلـــدان القريبة لتحصيل الجزية ، وتسجيل الانتصارات على جـــدران المعابد ..

وذات صباح وردت من ملك آشور (نينوس) رسالة عاجلة هامة .. إنه يأمر الضابط الشاب (مينونيس) حاكم سوريا أن يسارع بجيشه ، ليساعد فى حصار مدينة (بكتيريانا) ، وما كان الشاب راغبًا فى ترك موقعه ومكانه ، ولا كان يريد أن يشارك فى هذه الحرب ، ولا هو يستطيع أن يفارق الحمامة البيضاء : « سميراميس » فأطلعها على الأمر لعلها تجد سبيلاً لتفادى تنفيذ هذه الأوامر ، لكنها راحت تشجعه على الاستجابة ، لكى يحقق المزيد من الانتصارات والفتوحات ، وليرتقى ويكبر فى عين الملك ، وعندما سألها :

– وماذا عنك يا سميراميس ؟

- أنا جندية فى جيشك ، معك أينما تذهب ..
وكان أن اصطحبها معه ، والسؤال الدائم يتردد فى رأسها :
- وماذا بعد يا سميراميس ؟ !



المحاربة

المدينة صامدة ، وجيش آشور بقيادة الملك نينوس يشن الغارات واحدة بعد الأخرى ، لكنها تتكسر عند الحصون المنيعة ، ويطول الحصار دون جدوى .. وكانت قلعة المدينة تصب نيرانيها الحامية على المهاجمين ، وتصيبهم إصابات مباشرة ، لذلك آثر الملك أن يباعد ما بينه وما بينها ، وفضل أن يهاجم المدينة من عند السهل الواقع على النهر ، وتلك أضعف نقاط دفاعها ، غير أن اقتحام المكان لم يكن سهلاً ولا ميسورًا ، فما من ثغرة هناك ، بعد أن تحول الجند لتحصين هذه البقعة ، واستبسلوا فى الدفاع استبسالاً شديدًا ، فنجحوا فى رد الهجمات المتوالية ، التى لم تستطع اوصول إلى أسوار المدينة .. وكان الضابط الشاب وزوجته سميراميس يشاركان فى القتال مشاركة فعالة ، ولكنهما يعودان إلى خيمتهما مخذولين ، بلا أمل فى النصر ، رغم كل ما أبدياه من ضروب الشجاعة والجسارة .. وفى كل ليلة تأوى سميراميس إلى فراشها الخشن وهو ترجو أن تأتيها الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، فى أحلامها لكى تهديها إلى السبيل لاقتحام هذه المدينة ، وطال الانتظار .. لكن ذات ليلة قمرية رأت سميراميس – فيما يرى النائم – الحمامة

البيضاء قادمة ترفرف من ناحية القلعة ، وعادت من حيث أتت ، دون أن تصيبها سهام المدافعين التى تناثرت من حولها .. وعندما صحت سميراميس من نومها أدركت ما تريد الحمامة أن تقوله !

تسللت سميراميس من فراشها ، وتركت زوجها يأخذ قسطه من الراحة ، ومضت إلى أرض المعركة ، تجوس خلالها ، وعلى ضوء القمر سارت تجاه القلعة ، وتطلعت إليها ، وإذا بالحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، ترفرف فوق جانب من جوانب السور الضخم ، وتروح وتغدو عنه هذه البقعة ، وراحت سميراميس ترقبها فى انتباه شديد ، ثم ألقت بنظرة على الطرق الموصلة لهذا المكان ، وقد تناثرت فيها قطع كبيرة من الأحجار ، وكان واضحًا من الهدوء الذى يرنو على القلعة أن حراسها قليلون ، ويبدو أن ضباطها وجنودها قد غادروها ليحرسوا النقاط الضعيفة عند السهل المنخفض .. وقضت سميراميس وقتًا طويلاً وهى تدرس الموقف ، قبل أن تعود إلى خيمتها لتجد زوجها قد بدأ يستيقظ من نومه ، ويتقلب فى فراشه فى قلق ، وقد أحس بها عند رجوعها ، فسألها : أين كانت ؟ ، فروت له فى إيجاز ما رأته فى حلمها ، وأطلعته على ما كشفته خلال تجوالها قرب القلعة ، وطلبت إليه أن يمدها فى اليوم التالى ببعض من جنوده ممن يحسنون تسلق الصخور والأسوار ، لأنها قررت أن تتسلل عبرها إلى داخل المدينة ! .. وكان الضابط الشاب يشعر تجاهها بالقلق ، ويخاف من اندفاعها

وجسارتها واقتحامها للمعارك دون روية ، وفى عنف شديد ، وكم من مرة نبهها إلى أنه يجدر بها أن تتأنى وتهدأ ، وكم سألها ألا تغامر بنفسها ، وخاصة وقد رصدها الأعداء وحاولوا أكثر من مرة أن يغتالوها بأسهمهم ، بل نجحوا فى تسديد سهم أصابها فى كتفها ، وإن كان الجرح من حسن حظها سطحيًا وطفيفًا ، ولكنها م تكن تستمع إلى مثل هذه النصائح ، إذ كانت تود أن تؤكد شجاعتها واستبسالها ، وتتوق إلى تسجيل انتصاراتها .

وافق زوجها على طلبها بعد نقاش حاد بعض الشيء ، ومضت مع الجند قبل أن يظهر القمر فى الليلة التالية ، وهى تقتفى أثر حمامتها البيضاء ، الناصعة البياض ، وبدأت مغامرة رهيبة لو أن حراس القلعة وجنودها تنبهوا لها لأبادوها ومرافقيها ، غير أنها راحت تتنقل من حجر إلى حجر فى خفة وبراعة ، كأنها قطة ، وكان الجنود يتحركون فى صمت وهدوء شديدين ، وهم متحمسون لمهمتهم حماسة منقطعة النظير ، وحرس القلعة القليلون يغطون فى نومهم ، فما تصوروا قط أن أحدًا يخطر بباله أن يهاجم قلعتهم الحصينة ، وإذا ما فكر فى ذلك فالأسوار عالية ، وهناك مجرى ماء لابد من عبوره ، ثم بعد كل ذلك تنتظر النبال والأقواس والأسهم أولئك النادين لتقضى عليهم . وإذا تجاسروا وتقدموا أكثر فإن الحرب الطويلة ستمزقهم شر ممزق ، ومن بعدها سيوفهم الباترة ..

ظلت سميراميس وفرقتها لساعات طويلة يتحركون حتى وصلوا إلى مجرى الماء ، وأقاموا من فوقه جسرًا من جذوع النخيل ، عبروه ثم راحوا يتسلقون الأسوار والحراس غافلون ، وكلابهم تقبلت اللحم الذى ألقى به المهاجمون وبعد لحظات لقيت هذه الكلاب مصرعها .. كان واضحًا أن سميراميس قد أعدت لكل شيء عدته ، ومع أول خيوط الفجر كانت قد اعتلت وزملاؤها أسوار القلعة وقفزوا إلى داخلها ، وأعملوا سيوفهم فى الحراس ، حتى باتت القلعة فى أيديهم .

وأعطت البطلة الإشارة المتفق عليها إلى زوجها وجنوده ، وفتحت لهم الأبواب ليتدفقوا لاحتلال القلعة ، وبذلك أمكن لهم السيطرة على المدينة ، وأصبحت ما بين النيران التى تصبها عليهم القلعة ، والهجوم الساحق الذى يقوم به ملك آشور وقواته من ناحية السهل والنهر .. فاستسلمت المدينة ورفعت الأعلام البيضاء ، ودخلت القوات الآشورية تحمل رايات النصر ، وتعزف موسيقى الفتح المبين الذى تم بفضل سميراميس .

وعندما استقر المقام بالملك فى أكبر قاعات القلعة ، وجاء قادة المدينة مستسلمين ، ينتظرون مصيرهم ، لم يهتم لهم كثيرًا ، فقد كان يفكر فى هؤلاء الأبطال الذين نجحوا فى اقتحام القلعة ، وكان كل همه أن يعرف البطل الذى قادهم وتسلل بهم فى هذه العملية الذكية الجسورة ، فاستدعى الملك الضابط الشاب قائد الفرقة القادمة من سوريا ، والتى قامت طليعتها باحتلال القلعة ، وفتح أبوابها أمام الباقين ..

قال الملك للضابط :
– أريد أن أستعرض هؤلاء الأبطال ، وأشد على يدهم ..
– هم يا مولاى أدوا الواجب الذى عليهم لا أكثر !
– بل لابد لى من أن أشكرهم وأحييهم بنفسى ..

واضطر الضابط الشاب إلى أن ينظم الأبطال الذين اقتحموا القلعة فى صف طويل ووضع سميراميس فى نهاية الصف ، وكل أمله ألا يتعرف عليها الملك ، الذى جاء يسير فى خطوات وئيدة يسلم بيده على كل جندى ، إلى أن جاء دور سميراميس – وهى فى ثياب الجند – وعندما صافحها أحس بنعومة يدها ، ورقتها ، رغم ما فيها من قوة وصلابة ، فرفع بصره إليها ، وتملى فى عينيها ، وحملق فى وجهها ، وعندما بدأ يوجه إليها الحديث ، ويدير معها الحوار تنبه لصوتها ، وأدرك أنها « امرأة » ، وقد أذهله الأمر ، فنظر إلى زوجها متسائلاً مستفسرًا محققًا ، ولم يكن أمام « مينو » إلا أن يعترف قائلاً ..

– إنها زوجتى يا مولاى !
– ماذا ؟ !
– نعم ، هى زوجتى « سميراميس »

كانت المفاجأة غير عادية ، ورغب الملك فى ألا يطول الموقف أمام صف الجنود ، الذين كانوا لا يقلون عنه دهشة وذهولاً ، وقد صرفهم بإشارة من يده ، ودعا الضابط الشاب وزوجته إلى طعام العشاء على مائدته فى تلك الليلة ، وحاول « مينو » أن يعتذر فالإرهاق يبدو على جبين « سميراميس » بعد أن قضت ليلتها السابقة ساهرة تتسلق أسوار

القلعة ، وأمضت يومها فى قتال مرير ، إلا أن الملك أصر على الدعوة ، وكان من الواضح أن سميراميس رغم تعبها ترحب بالقبول ، فرضخ زوجها ، وهو يحس بانقباض لا يدرى له سرًّا ، يتسلل إلى نفسه ، ويجتاحه قلق لا يعرف سببه ، لكن يحاول أن يخفى ذلك وراء ابتسامة مغتصبة ، رسمها على شفتيه ، وهو يتمتم بكلمات الشكر ، ويصطحب زوجته ، وينصرفان عن المكان فى خطوات متعثرة .



زوجة الملك

غمر الملك « نينوس » البطلة المحاربة « سميراميس » بهداياه وعطاياه ، معبرًا عن إعجابه وتقديره لدورها فى فتح المدينة ، وارتاب زوجها فى الأمر ، فهو يعرف الملوك واستبدادهم ، وحذر زوجته من التمادى فى قبول هذا التكريم ، والتقرب منها ، لكن سميراميس رأت أن فى ذلك تشريفًا لها ، ولزوجها ، ومجرد تعبير عن الرضاء السامى عليها .. فما كان من الضابط الشاب إلا أن اقترح أن يعودا إلى سوريا ، لكن الملك لم يوافق ، واستدعى إليه « مينونيس » ، وقال له :

– إنى أود أن تزداد بى صلة ، وأن تكون قريبًا منى ..

– أنا تحت أمرك يا مولاى ..

– لذلك فإننى أرشح لك أختى زوجة !

– ماذا ؟ ! ولكننى متزوج من ...

– لا تقلق من أجلها ..

– كان بودى يا مولاى أن أقبل هذا الذى ..

ولم يدعه الملك يكمل عبارته ، واعتبر الموضوع منتهيا ، وأشار إلى أنه « أمر ملكى » ، وأدرك الضابط الشاب أن لا قدرة له على رفض

ما يمليه الملك ، وأنه لا يستطيع مقاومته ، فهو حاد عنيف فى استبداده ، وليس أيسر من أن يأمر باغتياله ، أو .. أو..

إن مشيئة الملك تنفذ على أية صورة ، وربما يتساءل البعض :

– وماذا عن سميراميس نفسها ؟ ! ماذا عن المرأة الجميلة الساحرة الطموحة ؟ ! لقد كان يبدو عليها فى تلك الفترة وكأن الأمر لا يعنيها ولا يهمها ، إنها لم تعلن عن رأى ، ولا تقول كلمة ، إنما تصمت فى انتظار ما يحدث .. كثيرون يرون أنها كانت إنسانة بلا عواطف ، وبدون قلب ، هى تريد أن تحقق أحلامها بكل وسيلة وبأى طريقة .. إنها مع من يفوز فى مثل هذا الصراع ، وهو بالطبع محسوم لصالح الملك .

وذات ليلة رأت سميراميس فى أحلامها أن صقرًا يهاجم عش حمام ، وأن الصقر أزاح ذكر الحمام ليقع من حالق ، واختطف الطائر القوى الحمامة القابعة فى العش ، تنتظر فى غير خوف أو قلق .. وعندما دققت النظر فى هذه الحمامة وجدتها شبيهة بها .. واستيقظت فى ذلك الصباح متعبة ، مرهقة ، فلم تجد زوجها فى الدار .. ولم يعد حتى المساء .. وتناقل الناس خبرًا وصل إلى مسامعها .. لقد مات الضابط الشاب .. كيف ؟ ! .. كثرت الروايات والحكايات ، ومن بينها ما يشير إلى مشاركتها فى اختفائه للأبد ، لكنها لم تبخل عليه بدموعها ، إذ أنها لا تنسى له أنه التقطها من الصحراء المجدبة ، فتاة غريرة بسيطة ، ليصنع منها زوجة له ، وليجعلها تعيش فى سوريا

حياة طيبة ، كما أنه عاونها على أن تصبح جندية شجاعة جسورة ، وفتح أمامها الطريق لتقتحم القلعة وبذلك استسلمت المدينة ، وكان ذلك هو السبيل الذى تعرفت به إلى الملك ..

وما أن انتهت أيام الحداد حتى أصبحت سميراميس زوجة الملك « نينوس » ، وأقيمت الأفراح والليالى الملاح فى كل آشور ، وانتقلت سميراميس إلى القصر الملكى ، الذى رفرفت من فوقه حماماتها ، وبينهن الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض .. وشعر الملك بأنه قد حقق حلمًا من أحلام حياته بزواجه من هذه الفتاة الرائعة : الجمال ، والذكاء ، والشجاعة ، وأحس أن العرش يليق بها ، وأن جلوسها عليه إلى جواره أمر طبيعى ، تستحقه إزاء مواهبها المتعددة ..

ومما لا شك فيه أن سميراميس كانت فرحة مبتهجة ، لكن الذين حولها كانوا يتوقعون أن تكون سعيدة إلى أقصى حد ، لكن فرحتها وبهجتها كانت مشوبة بلون من السرحان ، وكانت عيناها تحملقان إلى آفاق بعيدة ، وتبدو حالمة بشىء ما ، لا أحد يستطيع أن يدركه أو يتصوره .. ويسألونها أن تفيق إلى نفسها ، فليس يحدث فى كل يوم أن تتزوج فتاة من ملك البلاد ، وليست هذه لحظة الأحلام ، ربما تكون أقرب إلى ساعة تحقيق الأحلام ، ويجدر بها أن تحتفل بها ، إذ ما من فتاة إلا وطاف مثل هذا الأمل ، ولو من خلال الحكايات التى تقول : « وتزوجت الملك ، وعاشا فى تبات ونبات وخلفا الصبيان والبنات ... » .. وتنتصب سميراميس ضاحكة ، وربما همست بأنها

ما حلمت بذلك – وهى فى هذا صادقة – لأنها فيما يبدو حلمت بما هو أكثر من هذا ، وتضيف ..

– من كان يتصور أن فتاة الصحراء الوحيدة اللقيطة ، رضيعة الحمام ، يمكن أن تجلس بجانب الملك على العرش ؟ !

ويضحكون .. ستعيشين فى التبات والنبات ، وتخلفين صبـ..

وتقاطعهم : ملايين النساء يتزوجن ، ويخلفن ، وينجبن !

– وماذا عنك أنت ؟ !

– لا أدرى .. أنا سميراميس ، شىء آخر .. لست أرانى سلعة ، تنتقل من يد حاكم ، إلى يد ملك ..

– بماذا تحلمين ؟

– نفضت عنى أحلام الليل ، وأحلام النهار .. الذى يضنينى كيف تتحقق الأحلام على أرض الواقع ..

الحياة الجديدة جميلة .. ربما تكون أجمل من الحلم بها .. السلطة والسلطان فى يديها ، والملك لا يدحر وسعًا لإرضاء الحمامة الجميلة ، الذكية ، ولا يرفض لها طلبًا ، ويحقق لها كل ما تريد ، وفوق ما تريد ، ومما لا شك أن سميراميس قد بدأت تستثمر ذكاءها الفد ، وبدأ الناس يشعرون بذلك ، إذ أصبحت قرارات الملك تتم بالحكمة والروية وتغير كثيرًا عما كان ، وهم يدركون أنها وراء ذلك التغيير ، والأمور قد بدأت تتحسن كثيرًا عما كانت ، والرعية تشعر بلون من الرضا

والارتياح ، وأعمال البناء تقوم على قدم وساق ، وأخبار الانتصارات والفتوحات تتوالى ، فالمملكة واسعة ، والذين يحاولون أن ينقضوا على أطرافها كثيرون ، وما من سبيل للمحافظة عليها إلا بالقوة ..

وكان الذين يرقبون سميراميس أنها لم تتغير كثيرًا عما كانت فى الماضى ، ما زالت تسرح طويلاً ، والأحلام تواتيها ليلاً ، وهى تصحو مع كل صباح على حلم جديد ، وكان المتصور أنها قد حققت كل أحلامها ، وأنها قد حققت الآفاق التى طمحت إليها ، لكن ما يجرى تحت سمعهم وبصرهم يؤكد أنها ما زالت تحلم بالكثير ، ولابد أن البعض قد تجاسر همسًا وسألها فى رقة :

– هل ما زلت تحلمين بالحمام ؟ هل تزورك خلال نومك ؟

وتضحك سميراميس ، وتتهرب من الإجابة ، خاصة إذا ما كان (نينوس) قريبًا منها ، فهى أمامه تبدو يقظة سعيدة ، ولا تحكى قط عن الأحلام ، ولا تتحدث عن الحمام ، بل تدع له اختيار مواضيع الحديث ، ولا تفرض عليه شيئًا ، بل هى تلقى بأفكارها فى سلاسة وهدوء ، ولا تشعره بأنها تود لرأيها أن ينفذ ، أو ترغب فى أن تسود وجهة نظرها .. إنها فى ذكاء تبدو بلا رغبات أو مطامع ، وتظهر مستسلمة لتحديات الحياة ، متقبلة لها ، راضية بإقبال الملك عليها ، وبزهوه وفخره بها ، وكأنما قد تحقق لها كل ما تحلم به كل فتاة .. ولكنها فى وحدتها كانت تبدو غير ذلك ..

هى تفكر ، وتحلم ، وتعقد جبينها ، وتسند رأسها على كفها والخواطر تلهث فى رأسها ..



الملكة

جلست الوصيفات من حول « سميراميس » زوجة الملك ، وكثيرًا ما كانت تغفل عنهم وتنساهم ، وتسرح ، وتحلم ، وما من أحد يدرى أو يدرك إلى أين تطوح بها طموحاتها ، وتمضى بها آمالها ..

– مولاتى ، ماذا بك ؟

وتنتبه « سميراميس » وترد بسرعة كأنما تخشى أن تقرأ واحدة من الوصيفات أفكارها :

– لا لا .. لاشىء !

إنها – بينها وبين نفسها – لا ترتاح لهذا اللقب « زوجة الملك » ، وهى لا تصدق من يطلق عليها الملكة » ، وتقول لنفسها :

– لا .. لست ملكة ، إنما زوجى هو « الملك » : يملك ويحكم ويأمر ويتصرف ، وما من أحد يقدر على أن يرفض له كلمة ، والناس تدين له بالطاعة المطلقة .. أما أنا ...

وتسكت ، وتسرح من جديد : إنها تفكر ، وتنصح ، وتشير ، وتدبر ، لكنها ليست صاحبة الكلمة الأخيرة .. هناك حدود ، وقيود ، وكل ما لها من قوة وعظمة إنما تستمدها من أنها بجانبه ، وبجواره ، لا أكثر ولا أقل .. إن الناس يعرفون مدى ذكائها ، وقدراتها الواسعة ،

وأفكارها العظيمة ، لكنها بدون سلطة أو سلطان .. وكثيرًا ما تعترف بينها وبين نفسها ، هامسة :

– إنما أنا ظل ، لا أكثر ولا أقل ..

وتحلم بألا تكون ظلاً ، والأحلام بلا نهاية ، بلا أفق .. هناك دائمًا مجال للحلم الواسع العريض ، والحلم بالحكم يؤرقها .. والموتى فقط هم الذين لا يحلمون ، ولا يتمنون .. وهى تجد نفسها حين يلتف من حولها حمامها يناغيها وتناغيه ، وتشعر معه أنها ملكة ، أما مع الناس فهى لا تزيد على أن تكون « زوجة الملك » ، لا أكثر ولا أقل .. ترى ، هل سمعت عن « حتشبسوت » و « كليوبترا » أم سمعوا عنها ؟ ! .. لا ندرى ، لكن أحلامها بدأت تصبح شيئًا ملحًّا ، وهى تحلم خلال نومها ، وإذا ما صحت من بعدها تجد الملك « نينوس » إلى جوارها يعلو شخيره ، فتنظر إليه فى ضيق ..

– لماذا هو الملك؟ ما معنى أن يرث الحكم؟ كيف يولد الناس ملوكًا؟ هل يصنع لهم الناس عروشهم أم يصنعونها لأنفسهم؟ وتغادر فراشها، وتجلس بعيدًا عنه، وتتطلع إلى السماء باحثة عن نجمها ، أو مفتشة عن الكوكب الذى قيل إن أمها جاءت منه، وربما تبحث عن طالعها ومستقبلها ، وكم من مرة استدعت إليها الفلكيين ليحدثوها عما ينتظرها ، ولكنهم فى كل مرة يغمغمون بكلمات غير واضحة ، تفهم منها أنهم يجاملونها بقولهم إن نجمها فى صعود ! ، وإنه سوف يضىء ويلمع !!

وهى لا تصدق ما يقولون ، لأن الناس فى الحرب والسلم ، فى الشوارع والميادين ، فى الليل والنهار يهتفون لملكهم, وليس لها .. إنه صاحب الانتصارات ، وهو وراء كل توفيق يصيب البلاد والناس .. وتتذكر زوجها السابق ، لحظة .. قالوا إنه تمنى للملك مصيرًا سيئًا إزاء ما فعله معه .. وتنحيه عن رأسها ، ولكنها تفكر فى أن تصنع بنفسها هذا المصير السيئ ..

وصحا الناس يومًا ليسمعوا بالخبر الحزين .. لقد رحل الملك عن الدنيا .. توفى .. مات .. كيف ؟ ! .. تناقل البعض أن سما قد دس له فى الطعام ، وقيل إنه مات مكتوم الأنفاس لأن صوت شخيره أزعج زوجته ، وقيل إنهم نسوا أن يعطوه دواءه أو أعطوه جرعة أكبر .. لا أحد يدرى حقيقة ما حدث ، لكن الجميع كانوا يحسون أن سميراميس وراء تلك الميتة المفاجئة .. وقد تولت العرش ، وأصبحت ملكة متوجة ، لها جيشها ورجالها ، وعيونها التى ترى ، وآذانها التى تسمع ، وخشى الناس أن يترامى إليها ما يقولون لذلك لزموا الصمت ، بل ارتفعت الهتافات باسمها عالية ..

- سميراميس .. سميراميس .. سميراميس

وانطلق الناس إلى الشوارع والطرقات يتغنون باسمها ، ويرقصون طربًا بينما امتلأت السماء بالحمام يطير هنا وهناك ، وهديله يعلو .. ابنته صارت ملكة .. وسرعان ما تبددت الشائعات أمام جمالها وذكائها .. وأصبح كل شيء فى يدها وتحت أمرها .. ولا أحد ينازعها

السلطان فى كل آشور .. لقد صعد نجمها بحق ، هذه الفتاة التى لا يعرف أحد لها أصلاً ، والتى أرضعها الحمام ، والتى تحلم .. وتحلم ..

ها هى تجلس وحدها على العرش .. وتسرح ، وتحلم .. وتدخل الوصيفات إلى القاعة فلا تحس بهن ، ولا تتنبه لواحدة منهن اقتربت منها هامسة ..

– ها قد أصبحت « ملكة » يا مولاتى , بماذا تحلمين ؟

وتبتسم سميراميس ابتسامة حلوة ، وتقول :

– أريد أن أصنع الكثير من أجل آشور ..

– وماذا تبغين لنفسك ؟

– لنفسى ؟ ! .. لا شىء .. لا لا ، بل هناك أمر هام ..

– أى شىء هو ؟

– أرجو ألا تسخروا منه أو تضحكوا له ..

– من يجرؤ ؟ من يستطيع ؟

– أريد أن أتوسل إلى شعب آشور ..

– تتوسلين ؟ ! جلالتك الملكة ، تأمرين ..

– لا تضعوا على لسانى كلماتكم .. أعرف جيدًا ما أقوله .. إنى أتوسل لشعب آشور أن يقبل رجائى ..

– ماذا ترجيه ؟

– أن تبقوا على حياة الحمام .. وألا تذبحوه !

وتتطلع إليها عيون الوصيفة فى دهشة ، وتضيف « سميراميس » :

– لقد أطعمنى وأرضعنى ، وأريد أن أرد له فضله ..

وينتشر الأمر فى كل أرجاء آشور ، ويتهامس الناس :

– ما أرق أحاسيسها ..

– يا لقلبها الحنون ..

– مشاعرها طيبة !

وأمرت الملكة « سميراميس » فور هذا بأن تدق الطبول ، وأن تستعد الجيوش .. المملكة المرهوبة الجانب هى التى تستطيع أن تبقى وتعيش .. البلاد القوية هى التى يمكنها أن تعيش عصر الغابة ، ويبدو أنه عصر يمتد عبر كل التاريخ ، وإلا فليقل لنا المؤرخون : متى ساد السلام والعدل والعقل دنيانا ؟ ! ..

الحمام يحمل رسائل « سميراميس » إلى كل أطراف المملكة ، والجيوش تستعد على قدم وساق ، ولا أحد يدرى إلى أين ستقودها الملكة الذكية الجميلة ، والحماسة تملأ الجنود ، والشباب يقبل على الالتحاق بقواته المسلحة ، والبلدان البعيدة والقريبة ترتجف فرقًا وخوفًا ، وتتساءل ..

– هل تتجه الملكة بجيوشها شرقًا أم غربًا ؟ !

إن سميراميس تعلن فى كل لحظة أنها تستكمل مسيرة الملك العظيم زوجها الراحل (نينوس) ، والناس تبتسم فى حيرة لدى سماعهم

ذلك ، لكنهم مشغولون بتعبئة الجيوش ، وإعداد خطوط تموينه ، وتجهيز الأسلحة .. إن عصر الغازية الفاتحة يفتح صفحاته ..



الغازيــة

كانت سميراميس – كعادتها – جالسة تحلم .. لم تكفها أحلام الليل وهى نائمة ، وها هى تقضى فترات طويلة من يقظتها ، وهى لا تدرى بما حولها ، إذ هى تنطلق بخيالها إلى آفاق بعيدة .. وأيقظتها دقات السيوف من فوق الدروع واسمها يترنم به الجنود ، ويهتفون فى ساحات القصر ..

– سميراميس .. سميراميس ..

أفاقت الملكة ، وكان لابد وأن تخرج إلى الشرفة لكى تحيى هؤلاء الذين يرددون اسمها فى جنون ، وما إن ظهرت حتى كادوا يفقدون صوابهم ، وارتفعت صيحاتهم إلى الدرجة التى أزعجوا الحمام الذى يرفرف فى سماء المدينة ، فراح يرفرف ويعلو ، ويعلو ، وعيناها تتابعانه فى اهتمام كبير ، وموسيقى الهتاف باسمها يتسلل من أذنيها ، إلى قلبها ، فتحس بسعادة غامرة ، وتشعر بالزهو ، وتكاد تطير فرحًا لتلحق بالحمام ..

وكان لابد لها أن تشير إليهم ليصمتوا ، فمدت ذراعها البض الأبيض على آخرها ، وبسطت يدها وحركتها كأنما تربت عليهم ، وإذا

بالسكون يسود ، حتى إنهم كانوا يسمعون هفهفة أجنحة الحمام ، وقالت فى صوت شق أجواز السماء كأنه السيف البتار ..

– هيا .. إلى بلاد الفرس ، وآسيا ..

ومن جديد علا الهتاف ، ودقت طبول الحرب ، وزحف مائة ألف من جنود آشور ، تقودهم « سميراميس » ، وراحوا يجتاحون المدن والقرى ، ويكتسحون كل من يقف فى طريقهم .. وراحت تجوب أقطار آسيا ، وهم من ورائها يطيلون النظر إلى سيفها اللامع .. يشعر الجيش بالتعب ، ويحس بالعطش ، ويتوقف قليلاً فى مسيرته ، فما إن تمر بين الصفوف حتى تبعث رؤيتها عزيمتهم القوية ، وتلقى النظرة الثاقبة فتنهض همتهم ، ويندفعون كالإعصار ، يثبتون رايات آشور على كل مدن الشرق القريبة ، والبعيدة .

وإذا ما أسلم الجنود جنوبهم للرقاد ، وناموا ، راحت تجوس خلال معسكراتهم حالمة كحمامه ، رقيقة الخطو ، هادئة الحركة ، تكاد عيناها الوضاحتان الجميلتان تضيئان الظلام من أمامها ، وهى تواس الجرحى بابتسامة حلوة ، تشع عذوبة وحنانًا ، وإذا بالجرحى والمصابين يشهرون حرابهم وسيوفهم مع صباح اليوم التالى ، حين تشتعل الحرب ، وعندما تروح تلقى أوامرها بصوتها الحاد القاطع ، كسيفها .

وتحين لحظات انتصار ، وتتوجه بكلماتها التى هى أحلى نغم يسمعه الجيش خلال انطلاقه ، ويهزم صوتها – كأنه الانتصار ذاته – وهى تقف فى مكان مرتفع تهتف فى أبطالها ..

– ياجنود آشور ..

يارجال ، ياأبطال ..

هأنذا سميراميس ، أحبكم من كل روحى ،

أحبكم فردًا فردًا ، بكل ما يحتويه قلبى من مشاعر !

وتعزف الأبواق ألحان النصر ، وتعلو الهتافات صاخبة ، وترفرف الرايات شامخة عالية ، هناك عند الحمام الذى يطوف من حولها كأنما يحييها ويحميها .. وكل جندى يحس بعبارة الحب موجهة لشخصه بالذات !

يالمجدك ، ياآشور .. فما من ملك غزا كما فعلت « سميراميس » ، لقد ركعت فارس أمام الحضارة الوافدة ، والقوة القادمة فى فترة عارمة ، وتهالكت الممالك كلها ، وما عادت بقادرة على أن تقاوم هذه الحمامة التى أصبحت نسرًا ينقض بكل عنف ، فتشتت الجيوش ، وتهزم الأعادى ، وتعلى من قدر آشور فى كل الدنيا ..

وراحت سميراميس تقيم نصبًا تذكاريًّا فى كل بقعة نائية تصل إليها ، ليبقى شاهدًا ودليلاً على عظمة آشور ، ومجدها وروعتها ، والقواد من حولها قد سحرتهم بجاذبيتها وعبقريتها ، وخططها العسكرية التى ترسمها ، فإذا بها تحقق الانتصارات ، بل المعجزات .. وعندما دانت لها كل أقطار آسيا المعروفة فى تلك الأيام الغابرة ، بدأت تستعد للعودة إلى عاصمة مملكتها ، وفى ذهنها تلمع أفكار ..

ويتحول الجنود البواسل إلى رجال بناء وعمل .. يريدون بلادًا ومدنًا تليق بهذه الإمبراطورية الواسعة الأرجاء ، الفسيحة الأنحاء .. وتقرر « سميراميس » أن تبنى أجمل مدن الدنيا وأعظمها ، وهنا يأتيها المهندسون من كل حدب وصوب ، تأمر فيرسمون بخيالاتهم العريضة البنايات والعمائر ، ويشقون الشوارع ، ولا ينسون الحدائق والبساتين .. وتفاجىء الدنيا بأعجوبة من أعاجيبها السبع ، يترنم الناس بذكرها ، جنبًا إلى جنب الأهرامات .. إنها تقيم حدائق بابل المعلقة ، وتعلو أشجارها حتى لتلامس السحاب ، وتزينه الأزهار من كل شكل ولون ، وترصعه ، هى أول زهور تتناثر وسط السحاب !

لقد عادت من غزواتها بذهب وفضة ، وبالغنائم التى تكفى آشور لسنين طوال ، تنعم خلالها وبالرخاء والبناء ، ويسود السلام ربوع البلاد من أجل وفرة فى الإنتاج .. وتأمر أن يبنى لها قصران على ضفتى الفرات ، يربط بينهما من فوق النهر جسر أنيق جميل ، من خشب الأرز والسرو يبلغ عرضه عشرة أمتار ، وأقامت على ضفتيه طريقًا عريضًا ، وأمرت أن يحفر من تحت المياه نفق تستطيع من خلاله أن تنتقل بين القصرين دون أن تضطر إلى عبور النهر .. وأقامت معبدًا رائعًا للإله « بيلوس » .. ويجرى العمل على قدم وساق .. لكن ذلك كله لم يكن يجعلها بغافلة عن جيشها الذى صنع لها النصر فى آسيا ، فراحت تعيد تنظيمه ، وترتيبه ، ولم يفتها أن يستمر الجند فى تدريبهم

تحسبًا لما يأتي به المستقبل ، وهى لا تنسى كيف كانت الغارات على أطراف المملكة تحدث بين الحين والحين .. نعم ، لقد صارت مرهوبة الجانب ، يدوى اسمها فى كل مكان فيثير الرعب والذعر ، وما عاد أحد بقادر على أن يرفع سلاحه فى وجه آشور ، بل راح الجميع يتقربون بتقديم القرابين والهدايا للملكة العظيمة « سميراميس » ويطلبون إليها توقيع معاهدات الصداقة وحسن الجوار ، وهى سعيدة بما حققت ، فقد تجاوزت ما صنعه زوجها الراحل الملك « نينوس » .. وكانت « بابل » قد بدأت تستكمل مبانيها الرائعه ، وسورها العظيم بانت ملامحه : إنه فى نصف دائرة ، وطوله يبلغ نحو سبعين كيلومترًا ، وكان عريضًا إلى درجة أنه كان فى مقدور ست مركبات متجاورة أن تنطلق من فوقه ! ..

وشغلت سميراميس بكل هذا ، وأبت أن تتزوج ، خوفًا من أن تفقد سلطانها ، وخشية أن ينازعها الزوج فى عرشها الذى ما وصلت إليه إلا بعد كفاح طويل ، استطاعت خلاله أن تخمد عواطفها وتكبت مشاعرها ، وظلت طيلة الوقت لا ترغب فى شىء إلا تحقيق هذا الحلم الذى راودها على مدى العمر : أن تكون ملكة متوجة ، لا يشاركها أحد فى السلطة والحكم ، ولا يقاسمها إنسان ما حققته من نصر ونجاح .. فلماذا تخلق لنفسها منافسًا ؟ !

* * *

الفاتحـة

كانت « سميراميس » فى قصرها – ذات صباح – تحلم .. لقد شهدت أعمال البناء والتشييد ، ورضيت عنها كل الرضا ، إذ تسير الأمور على ما تحب وتهدى ، لكن مازالت الأحلام تراودها ، وسؤال يلح ..

– هل مازال هناك مجال للمزيد من النصر والمجد ، تحلم به هذه الملكة الغازية ؟ نعم ، كان هناك الحلم الأكبر : مصر .. لماذا لا تمضى بجنودها إلى أرض الأهرامات والمسلات ، والفنارات ، وبلد العلم والمعرفة وجامعة عين شمس ، مدينة الطب والحكمة وامحوتب ؟ !

وتلح عليها الفكرة إلحاحًا شديدًا ، وتستدعى إليها قوادها وضباطها وتطرح عليهم هذا السؤال :

– ماذا ترون فى « السير » إلى « مصر » ؟ !

– مصر ؟ !

تعالت الهمسات بالكلمة ، ودارت رؤوسهم ، ولهثت فيها الأفكار والخواطر ، فالإجابة ليست يسيرة ، ولا هى سهلة .. نعم ، لقد انتصرت جيوش آشور فى كل آسيا ، لكن الأمر هنا مختلف .. إذ أن الفراعنة فى ذلك الحين كانوا قد سجلوا انتصارات كبيرة ، ونجحوا

فى اكتساب احترام الدنيا بما أقاموه وشيدوه ، وبما صنعوه من تقدم وحضارة ، وبما حققوه فى مجالى العلم والمعرفة .. ثم إن الملكة « سميراميس » لا تريد أن تفقد ما سجلته من نجاح ، ولا تود أن تخسر معركة واحدة بعد أن دوت نجاحاتها فى كل الدنيا .. الجميع يفكرون قبل اتخاذ هذه الخطوة ، خاصة وكثيرون من بينهم عاشوا فى الشام ، على حدود مصر ، وسمعوا بأخبارها ، والتقوا ببعض من أهلها ..

لكن « الحلم » يلح على الملكة ، وفكرة الوصول من « العراق » إلى « مصر » تداعبها ، وتلوح لها أمنية تستحق السعى إليها والنضال من أجلها .. ولا يطول الجدل بين الذين يحيطون بها ، وأغلبهم من العسكريين الذين يريدون أن ينطلقوا إلى ميادين القتال ، إذ أن حياة السلام والدعة لا تروق لهم ، وهذه القصور والمبانى يمكنها أن تنتظر ، وهى جديرة بأن يسكنوها بعد أن يحققوا طموحات شبابهم وآمالهم ، وهم أيضا يودون أن يمضوا لا إلى مصر وحدها ، بل يرغبون فى تجاوزها إلى الصحراء الليبيه .. لكن هل يقدرون ؟ هل يستطيعون ؟ ..

الصمت يخيم على الجميع ، ينتظرون كلمة سميراميس أو إشارتها ، وقد ترامى إلى سمعها منذ بعض الوقت أن مصر لم تعد كما كانت ، وأن هناك مشكلات يعانيها الفراعنة من جانب رجال الدين ، وأن نزاعات حادة تنشب بين أطراف عدة ، وأن خلافات كبيرة تقوم فى القصر ، وقد خشيت ألا تكون هذه الأنباء صحيحة ، فتورط بلادها

فى حرب طويلة لا تطيقها .. فرأت أن تبعث بالرسل والجواسيس ليعودوا إليها بالخبر اليقين !

وجاءت الأخبار ، أن مصر فعلاً تمر بظروف قاسية ، وكان أن أعطت سميراميس الإشارة بالاستعداد .. ومن جديد راحت السيوف تطرق الدموع ، والهتافات الصاحبة تعلو ، والجنود يستعدون لكى يمضوا غربًا .. وحانت اللحظه الحاسمة ، وخرجت سميراميس على رأس جيوشها فى طريقها إلى مصر ..ومما لا شك فيه أنها فى الطريق إلى الشام قد تذكرت رحلتها الأولى إليها مع زوجها مينونيس » ، فقد كانت هى البداية للمجد الذى تعيشه الآن .. ولقيت الجيوش حفاوة من البلدان والولايات التى مرت بها ، فإن ذيوع حديث سميراميس جعل منها أسطورة تتردد فى كل الدنيا ، وأصبح من آمال كل الأقطار التابعة لها أن تحظى منها بالزيارة ، لذلك كانت الجماهير تخرج لتحيتها ، وتنثر من تحت أقدامها الزهور ، وتقدم لها الهدايا ، وتعلن عن الطاعة والولاء ..

وصلت جيوش سميراميس إلى حدود مصر ، واستعد الجنود للمعارك المنتظرة ، وأذهلهم أنهم لم يجدوا هناك من يستعدون إلى لقائهم وقتالهم .. وفى اليوم التالى لوصولهم أقبل من مصر موكب صغير ، يضم الأمير « كيتاهور » وحاشيته ، وطلب أن يقابل الملكة ، فقالت فى تعالٍ وغرور :

– من يكون ؟

– أمير منف .

– ماذا يريد ؟

– لا تدرى ..

– ألا يخشى أن نقتله أو نأسره ؟ !

وفى هذه اللحظة تعالى عزف جميل على قيثارة ، وصمت الجميع ، وأعطوا آذانهم للموسيقى ، فقد كانت عذبة شجية ، ولم يكن هناك من يريد لها أن تسكت ، وما من أحد كان يرغب فى أن يخدش جمالها بكلمة أو همسة ، حتى « سميراميس » راحت تصغى فى هدوء ، ولم تضق بالنغم الذى لم يكن أحد يعرف له مصدرًا ، بل كان واضحًا أنها تستمتع به ، رغم أن صاحبه لم يستأذنها ، مما أثار دهشتها وحب استطلاعها .. وما إن توقف العزف حتى تساءلت « سميراميس » عن صاحبه ، وكان الرد مفاجأة أخرى .. إنه الأمير كيتاهور نفسه .. تهتف سميراميس ..

– أدخلوه ..

ويدخل الأمير ، رقيقًا ، وديعًا ، مثل نفحة عطر .. يخطو فلا تكاد أقدامه تلمس الأرض ، وينحنى فى أدب جم ، ثم يرفع رأسه دون أن تتطلع عيناه إلى الملكة الواقفة فى مهابة وقوة .. وتأمر بأن يخلى الجميع المكان ، ويتردد حراسها ، لكن كلماتها كانت حاسمة ..

فانسحبوا بعيدًا ، وهم يخشون الغدر ، فطمأنتهم بإشارة من يدها ، ساعتها خرجوا ، وأغلقوا من ورائهم الباب .. قال الأمير فى صوت مهذب ..

– جئت ياMولاتى أعرض – نفسى – رهينة يديك ، ضمانًا للجزية التى تفرضينها على بلادى !

هتفت سميراميس فى دهشة : ماذا ؟ !

– نحن فى ظروف لا تسمح لنا بالحرب ، ولا حاجة بنا إلى القتال ، ونود أن تسود علاقاتنا السلام ، والوئام ..

– أليس فى الأمر خديعة ؟ !

– أيه خديعة وحياتى رهينة بين يديك ؟

– هل يضمن ذلك أن تدفع بلدك الجزية ؟

– نعم .. أؤكد ذلك لمولاتى ..

– لكن ، صارحنى بالسبب الحقيقى لقراركم هذا ..

– فرعون عندما يخرج للقتال ولا تكفى رؤيته لتشتيت صفوف أعدائه فإن ذلك معناه أن الإله قد تخلى عنه ، لذلك ضحيت بعرشى لبلادى .

– ما تصورنا قط أن ينتهى الأمر بهذه الصورة ولا بهذه السهولة !

– إنه قدرنا ..

نكس الأمير رأسه ، وساد الصمت بعض الوقت ، وعندما طال رفع عينيه إلى الملكة « سميراميس » ، ولأول مرة تلتقى نظراتهما ، سريعة ، خاطفة .. هو لا يقدر على النظر إليها احترامًا وخشية ، وهى لا تريد أن ترى فيه مزيدًا من الضعف والاستسلام ، تقديرًا لبدنه ، ومكانته ، وتضحيته بنفسه ليجنب شعبه الدمار على يد الفاتحة الباسلة « سميراميس » .



السلام

عادت سميراميس إلى آشور ، وعلى رأسها تاج النصر ، ومعها الأمير الأسير ، وقد تحقق لها المجد .. وعندما وصلت إلى عاصمة مملكتها استقبلتها الجماهير بأصوات هادرة ، بينما كانت الحمامات تمضى مع موكبها مرفرفة ، كأنها تدرك ماجرى وماحدث .. وعلى جانبى الطريق إلى المعبد الكبير ، الذى تم تشييده ، كان الشباب الصغير يقف ملوحًا بالأعلام والرايات ، بينما كان الأطفال ينثرون الزهور من تحت أقدامها ، وهى تخلو فى عظمة وجلال ، والموسيقى تصدح ، ودخان البخور يعبق فى الجو ، وعندما وصلت إلى الدرجة العليا من سلم المعبد ، التفتت إلى الناس الذين غطوا الساحة من أمامها ، فارتفعت من جديد هتافاتهم عالية صاخبة ، وبإشارة من يدها استدعت حامل راية الجيش . فقدم نحوها ، وانحنى ، واقترب منها العلم ، تداعبه النسمات ، فأمسكت بأطرافه ، ومالت عليه ، حتى احتوى وجهها الجميل ، وراحت تقبله ، والصيحات تشق عنان السماء ، فقد فقدت الجماهير صوابها ، وماعادت بقادرة على أن تكبح جماح حماستها للملكة الساحرة ، وآشور الخالدة .. ومن جديد رفرفت الحمامات وطارت مبتعدة إلى السماء تلاحقها الهتافات .

وانتصبت « سميراميس » فجأة ، وأشارت بيديها الفاتنتين إلى الشعب والجيش فى الميدان ، وقد اختلطا فى لحظة من لحظات التاريخ الخالدة ،

وعندما فتحت سميراميس ثغرها لتتكلم ساد الصمت الرهيب ودوى صوتها ..

– يا أبطال آشور ، يارماحها ، وسهامها .. يارجال دجلة والفرات ، يادروعها ، ياسيوفها .. يامن تغلى فى عروقهم دماء النصر ، يجيشى الظافر ، أريد أن أضع على رأس كل منكم تاجًا ، وأرغب فى أن أطوق أعناقكم بالأكاليل والزهور ، لأننى يارجال ياأبطال أحبكم من كل روحى ، من كل دمى ..

ومن جديد عادت الهتافات مصحوبة بدقات السيوف فوق الدروع منغمة ، موقعة ، وكلها تردد كلمة واحدة ..

– سميراميس .. سميراميس .. سميراميس ..

وأشارت من جديد .. وعاد الهدوء ..

– يا بناة آشور .. وبابل .. ونينوه .. يافاتحى آسيا وأفريقيا .. شرفتم وطنكم ، وأعليتم قدره ، وأستطيع أن أرى نجمه فى السماء .. ومن حقكم أن ترفعوا الرؤوس ، وأن تكشفوا عن جروحكم وأن تفخروا وتتيهوا بها ، فإنها من أجل مجد الوطن .

ولوحت للحمائم ، وقالت ..

– شكرًا لكم أنتم كذلك ، ياحراس سمائنا الخالدة ..

وقبل أن يعود الهتاف من جديد ، قالت ..

- والآن ، سوف أدخل المعبد ، لأشكر الإله ما منحنا إياه من نصر وظفر .. ودلفت سميراميس إلى بهو المعبد تلاحقها الهتافات ..

وعاشت آشور أيامًا مجيدة ، ولم تخلد الملكة سميراميس للراحة بل راحت تفكر وتحلم ..

- ترى ، كيف يعيش اسمى ويبقى على مر الأيام ؟ !

استدعت إليها الأمير المصرى .. من أقدر منه على معرفة أسرار الخلود ؟ ! ألم ينجح أبناء بلده فى أن ينقشوا على صفحات التاريخ أمجادهم وفتوحاتهم ؟ ! .. وبدأ يشير عليها بالكثير ، وتعددت اللقاءات ، وانتشرت الهمسات .. إن الملكة تميل إلى الأسير ، وتؤثره على كل من حولها ، وشعر القادة والوزراء بالغيرة إزاء ذلك التقارب بين الملكة والرجل .. وترتفع الهمسات لتصبح تلميحات ، بل لقد وصلت إلى الملكة رسالة تحملها حمامة .

- أبعدى هذا الأمير الأسير !

وعندما جلست الملكة إلى كبير الكهنة راح يحدثها عن أساليب ذلك الشعب الذى يعيش على ضفاف النيل ، وكيف تعلم أن يحقق أهدافه بوسائل غريبة وفريدة ؟ وكيف أنه صبر على النهر ، وراح يروضه حتى أصبح طيعًا بين يديه ؟ وكيف أنه تمكن من الإيقاع بالهكسوس والحيثيين وكل من تسول إليه نفسه الاعتداء على أرضه وأهله ؟ ، وكيف أنه شعب واسع الحيلة ، وأن ما لا يقدر على انتزاعه

بالقوة والعنف يستطيع أن يحصل عليه بالدهاء ؟ ، ورغم كل ما يبدو عليه من مظهر بسيط .

استمعت الملكة إلى هذا البيان الطويل من كبير الكهنة ، كما أنها أنصتت لكلام شبيه بذلك من كبير القادة ، لكن هذا كله لم يحل بينها وبين الالتقاء بالأمير الأسير ، وكثيرًا ما كانا معًا يتجولان فى حدائق بابل المعلقة ، وهى تطرح عليه أفكارها ومشاريعها ، وهو يدلى إليها بخبراته العريضة ومعارفه الواسعة .. وبدأت تبنى المعابد ، وتحفر على جدرانها قصص فتوحاتها وأمجادها ، وراحت تروض النهرين لتخضر الأرض فيما بينها ، كما أنها أنشأت المدن ، وبنت القصور والدور ، وأقامت الحدائق ، ونثرت الزهور فى كل مكان .. لكن ذلك كله لم يكن كافيًا لكى يرضى القادة والكهنة والوزراء ، كان كل منهم لا يريدها لهذا الرجل المهزوم ، القادم من بعيد .. إنها إذا لم ترض بواحد منهم ، فلا أقل من أن تبتعد عن الأمير الأسير ، وهى لا ترى فى صلتها به شيئًا ، بل ترى أن ما يتقول به الناس تدخلاً فى أمورها الخاصة وتحكمًا فى شئونها ، وهى المليكة المتوجة ، التى انتصرت لآشور شرقًا وغربًا ، ومدت سلطانها إلى كل أرجاء الدنيا ..

واشتد الصراع ، وبدأت المؤمرات .. ووصلت الهمسات إلى رجل الشارع ، ذلك الذى يريدها رمزًا للقوة ، والنصر ، والمجد .. وعلمت سميراميس بما يقال ، لكنها لم تهتم وأصرت على أن قلبها من حقها وحدها ، وأنه لا سلطان لأحد عليه .. لذلك غضبت كل الغضب

عندما علمت أن قائد جندها قد افتعل شجارًا مع الأمير الأسير ، واستفزه ، ودعاه إلى المبارزة .. ورغبت فى أن تسوى الأمر بينهما إلا أنها لم تستطع .. وأدركت أنه حتى الملكات ليس فى مقدورهن كل شيء ، وأن هناك أمورًا تخرج عن أيديهن .. وتتبعت أنباء المبارزة ، وقد أحست بالأسى وهم ينقلون إليها أن الأمير الأسير قد لقى مصرعه ، وأن قائد الجند قد أصيب بطعنة سيف أسلمته للفراش ، وربما يبقى فيه طويلاً طويلاً .

طال حزن سميراميس ، وأصبحت راغبة فى الوحدة ، وقللت من لقائها بالناس والقادة والضباط ، وأوت إلى قصرها قلما تغادره ، إلا إذا كانت تريد أن تشهد قناطر أقيمت ، أو مشروعات أنجزت ، أو مبانى شيدت .. وكان العمل يجرى على قدم وساق ، لأن الملكة أرادت أن تخلد اسمها بوضعه فوق كل نصب ، وعلى كل جدار ، وداخل كل معبد ، وراحت تشرف بنفسها على حدائقها المعلقة التى ارتفعت عالية ، حتى كادت تلامس السحاب .. وكثيرًا ما كانت سميراميس تسأل نفسها :

– هل أنا سعيدة فى دنيا البناء كما كنت فى ميدان الحرب ؟ !

* * *

النهايـة

ذات ليلة سهرت سميراميس وحيدة فى حدائق بابل المعلقة .. كانت ترمق النجوم بنظراتها الحالمة ، وتسأل نفسها السؤال الخالد :

– وماذا بعد ؟ !

سيطر عليها حلم الخلود .. إنها لا تريد أن تمضى ، وتذهب كما حدث لمن قبلها ، هى تريد أن تردد الأجيال اسمها ، وأن تعرف لها مجدها .. وكان الأمير المصرى يشير عليها بالكثير ، لكنه رحل ولن يعود .. وهى على مدى نهارها وليلها تستعرض أحداث حياتها ، وتعيش لحظات مع ذكرى فتوحاتها ، والأخبار تأتيها من كل أرجاء مملكتها أن الناس مازالوا يرددون اسمها ، ويهتفون به ، ويقدرون لها بطولتها وشجاعتها .. وتسأل نفسها :

– هل يموت كل ذلك بموتى ؟ !

وتهتف : لا .. بل لابد وأن يبقى على مر التاريخ والزمن !

وتنشط سميراميس فى التعمير والبناء .. وتفكر كما يفكر العجائز ..

– ترى ماذا يمكن أن أكتب على قبرى ؟ !

وتستدعى إليها البنائين ، والفنانين ، وتناقشهم فى كل شىء .. هى تريد صروحًا عالية ، وأهرامات خالدة ، ومسلات باسقة ، يذكرها

بها الناس .. وتريد أن تبقى حية بعد رحيلها ، لذلك أمرت سميراميس أن تحفر هذه الكلمات على قبرها :

« إن الطبيعة خلقتنى امرأة
فقد جلست على عرش نينوس
الذى يمتد ملكه شرقًا إلى نهر هينامانيس
وجنوبًا إلى بلاد البخور والمر
وشمالاً إلى حدود بلاد الساس وسوجديان
ولم يتح لآشورى قبلى أن يرى البحار
أما أنا فرأيت منها أربعة
لم يمخر عبابها أحد لعبدها
وجعلت الأنهار تجرى حيث أريد
فى كل مكان نافع
فأصبحت الأرض كثيرة الخصب
وكذلك أنشأت القلاع والحصون المنيعة
وشققت بحديدى فى الصخر مسالك لمركباتى
لم تقع عين حى – حتى الحيوانات المفترسة –على مثلها
ومع ذلك لم تمنعنى هذه المشاغل
من أن آخذ قسطى أيضًا

من اللهو والحب » ..

وذات مساء تسأل سميراميس نفسها ..

– الرحيل ؟ إلى أين ؟ !

كانت الحمائم مازالت تلوذ بها ، وتحط من حولها ، وتلتقط الحب من بين يديها ، وترفرف فوقها ، وتقف فوق كتفها ، والناس يرون ذلك ويسعدون به ، بينما هى حالمة تفكر ..

– لماذا أمضى ؟ !

ويكون الرد : هكذا الحياة ، لها بداية ونهاية !

وتحدث سميراميس نفسها ..

– لكننى كنت دائمًا مختلفة عن كل الآخرين .. إننى ملكة منذ اثنين وأربعين عامًا ، مَنْ حكم مثلما حكمت ؟ ثم .. إن فتوحاتى شرقًا وغربًا ، فى آسيا وأفريقيا ، لم يأت بمثلها قائد أو فاتح .. هل يذهب كل ذلك مع الريح ؟ ! .. إنها تحتضن واحدة من الحمامات ، وتضمها إلى صدرها ، وتروح ترفعها لتلصقها إلى خدها فى حنان، وتحس بالارتياح.. وهى أحيانًا تعد الريش فى جناح الحمام أو ذيله، وتتطلع إليه وهو يطير من بين يديها، وتتابعه وهو يصعد عاليًا.. وهمست يومًا..

– لماذا لا أصعد بنفس الطريقة ؟

وتقول الأسطورة إن سميراميس من شغفها الشديد بهذه الفكرة التى سيطرت عليها ليل نهار تحولت ذات يوم إلى «حمامة». ألم يقولوا يومًا إنها ابنة حمامة، فلماذا لاتعود فتصبح «حمامة»؟! كيف كان ذلك؟ هل حدث بحق؟!.. لكن أحدًا لم يعثر على قبر سميراميس، والحكاية تقول إنها تنازلت عن عرشها، ولم تعد راغبة فيه، وأن جنحين قد نبتا لها، وأنها طارت، وطارت إلى عشها كالحمام الزاجل!

لكن حكاية أخرى تقول..

– اقتربت سفينة فضاء من كوكب الأرض وبدأت تقلل من سرعتها، وتستعد للهبوط إلى «آشور»..

وكانت سفينة الفضاء هذه قد قامت بهذه الرحلة مرتين من قبل، نقلت فى المرة الأولى أم سميراميس إلى الأرض وفى المرة الثانية حملتها إلى كوكب بعيد..

وها هى سفينة الفضاء تكرر الرحلة لتحمل سميراميس إلى ذلك الكوكب لتبقى فيه مع أمها، فهى بعد كل ماحققت من أمجاد ومانجحت فيه من فتوحات، رأت ألا يكون رحيلها عن الأرض مثلما يحدث من قبل، ولن يتكرر من بعد.. لقد التقطتها سفينة الفضاء وطارت بها..

أو طارت هى بنفسها حمامة بيضاء، راحت ترتفع وترتفع إلى أن اختفت فى الأفق.. ورافقها فى رحلتها سرب من الحمام ظل يواكبها

إلى أن صارت نقطة فى صفحة السماء الزرقاء، وراحت تصغر رويدًا رويدًا حتى غابت عن ناظريه وعن الأرض.

وظلت الإنسانية على مدى خمسة آلاف سنة تسأل نفسها :

- هل عاشت ملكة اسمها سميراميس حقًا على أرضنا؟ أم هى مجرد حكاية؟!.. وإذا كانت قد عاشت فهل حقا كانت ابنة لحمامة، ورحلت عن الدنيا كحمامة؟!..

ربما ، فإن أحدًا لم يعثر لها على أثر.. لقد اندثرت كل النصب، وانهدمت كل المعابد، وزالت الكتابات من على الجدران.. لتبقى سميراميس أسطورة، لاتحددها الكلمات، ولاتصنعها العبارات.. لتبقى سميراميس رمزًا لعظمة آشور، وبطولة آشور، ومجد آشور.. ولتبقى علامة على الخلود: اسمًا ، كالمجد.. كالجلال.. كالعظمة.. دون حاجة إلى لوحة أو جدار أو معبد.. وبقيت سيرة عطرة يتناقلها الناس وحكاية تثير الخيال.. وبقيت آشور من يومها تقدس « الحمامة » ؟!

* * *

رقم الإيداع	٢٠٠٣/٢٠٠٩٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6538-1

٧/٢٠٠٣/٦٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)